فجر اللقاء

رواية

تأليف
سجاد الحولاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

((وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ))

"الفشل هو التربة الخصبة لشجرة النجاح المثمرة"

سجاد سالم الحولاوي

العراق – ذي قار - المنار

الإهداء :- .....

إلى كل من شجعني للكتابة ..... شكرا لكم .....

شكراً للسيد و الأستاذ إبراهيم الخراساني الذي دفعني للكتابة .....

شكراً للأستاذ والرسام كرار رزاق الشامي على تصميم غلاف الكتاب .....

شكراً للأستاذ ماجد ريسان الحريشاوي لتدقيق الكتاب.....

وشكراً للشيخ والمُدقق وأستاذي فاضل نايف.....

(1)

انتهى بلمح البصر

لمشاهدة غروب الشمس من مقاعد تطل على نهر ما أروع شواطئه يجلس صديقان تدل هيئة مداخلتهما في حديث دار بينهما أنهما صديقان قديمان، وقد انفرد عنهما وعلى بضعة أمتار شخص مقعد ويغط في حزن عميق حتى الكمد, وركز كل نظره نحو الأفق باتجاه الشمس التي لم يتبقَ لها إلا بعض من الدقائق المعدودة لغروبها. حتى أن الناظر إليه سيتأسف على ذلك الوجه المليح الذي تربع عليه الاكتئاب.

ولشدة أسف طه سأل شُبير الذي كان يجلس بجانبه: شُبير، حتى لو أن أخاك شُبَّر أراد أن يتعافى فإن حزنه المفرط سيحول دون ذلك, فالحالة النفسية للمريض تلعب دوراً كبيراً في تماثله للشفاء .

شُبير وقد زفر بحزن وعيناه نحوَ أخيه شُبَّر: لقد أجبرناه أنا ووالدتي على أن يخرج معي للتنزه، أنت لا تعلم كيف وكم ألحَّت عليه والدتي وأصرّت عليه للخروج معي حتى يخفف عن نفسه، لقد فقد حتى الرغبة في أن يتنزه ويطرد عن نفسه كآبته وحزنه الشديد, ونحن قلقون كثيراً بشأنه .

فجأة يقطع حديثهما جلوس شاب غريب, حيث استغربه كل من شُبير وطه فلم يريا هذا الشاب في هذا الحي من المدينة من قبل، حيث جلس على إحدى المقاعد التي تطل على النهر، وراح يغط في قراءة كتاب كان يحمله معه. لقد كان ذلك الشاب يشبه شُبَّر الحزين شبهاً كبيراً. شاب ذو بشرة بيضاء وشعر أسود سرح تلاعبه الرياح.

و في استغراب شديد يسأل شُبير: هل تعرف هذا الشاب يا عزيزي طه؟

طه وهو يمعن النظر بذلك الشاب الغريب: في الحقيقة كنت أريد أن أسألك ذات السؤال، فأنا أجهل من يكون. ولكن انظر يا شُبير انظر إليه والى الشبه الذي بينه وبين أخيك شُبَّر. اقسم لو انه صادفني في طريق ما, ما كنت لأميز بينه وبين شُبَّر إلا كرسي أخيك شُبَّر المتحرك.

شُبير: حقاً, حقاً سبحان الذي يخلق من الشبه أربعين!

وأثناء ذلك إذ هبت رياح حملت معها ورقة ممزقة من كتاب ذلك الشاب الغريب ولحسن الحظ التصقت بوجه شُبَّر ذلك الشاب الحزين المقعد. وأثناء ما كانت ورقة كتاب ذلك الشاب الغريب أسيرة الرياح إذ قام ذلك الشاب بمطاردتها إلى أن استقرت عند شُبَّر بعد أن التصقت بوجهه. امسك شُبَّر الورقة بيديه ووقعت عيناه على محتواها حيث كان مكتوبا بالسطور الأولى:

"عندما نبتسم سيبتسم الكون لنا, وحتى السعادة لن تبرح قلوبنا, وستغدو البهجة عادة لا غنى لنا عنها. ما يظنه الإنسان عن نفسه حتما سيكون واقعه

الذي سيعيشه. تصور أنك حزين, سيأتيك الحزن بلا شك, ولكن إذا تصورت عن نفسك المزاج الجيد والفرح والسرور والابتهاج فسيأتي لك كل ذلك. ولكن إذا كان الإنسان حسب ما يعتقده عن نفسه, دائم الحزن وعابس الوجه ودائم التشاؤم, فهذا هو الخطر بحد ذاته, إذ أن كل من حوله سيعتاد على أنه دائم الحزن, وباختصار..... هذه هي صفته وعادته, ومع مرور الوقت وشيئاً فشيئاً لن يسأله حتى المقربون منه..... ما الذي يحزنك؟"

وعندما وصل الشاب الغريب إلى مستقر ورقة كتابه, وبابتسامة ما أعذبها قال: السلام عليكم.

رد شُبَّر وبارتباك ملحوظ: وعليكم السلام .

الشاب الغريب: أرجو المعذرة إذ أن الورقة قد التصقت بوجهك عندما حملتها الرياح.

شُبَّر: لا، لا عليك.

ثم قال الشاب الغريب وأثناء أخذ تلك الورقة بعد أن قدمها شُبَّر إليه: من المؤسف أن يتغلب الحزن على وجهٍ وسيم مثل وجهك (قال الشاب الغريب هذا الكلام وكأن عينيه ستخترقان عيني شُبَّر). ثم استطرد الشاب الغريب وقال: هذا الكتاب الذي أحمله والذي يسمى (خطاب الأرواح) يتكلم عن أمور كثيرة تخص النفس البشرية ومن ضمنها أنه "مهما كانت الحياة قاسية معنا لابد وأن يكون هنالك أملٌ يربطنا بالسعادة".

وأنت الآن وعندما تغط في هذا الحزن فإنك تجر كل من هو قريب منك لمستنقع حزنك يا عزيزي. وأنا اعتذر إذ أنني قد تدخلت بأمر قد يكون خاصاً بك، ولكن لا أعلم سبب تدخلي وأظنه جاء عن خارج نطاق إرادتي.....إلى اللقاء.

لقد كان في نفس شُبَّر أن يكمل القراءة, أي قراءة ما تبقى من محتوى تلك الورقة. وأيضا كان يتمنى لو أن ذلك الشاب أكمل حديثه. ولكن كل شيء قد انتهى بلمح البصر....في وسط الذهول يقع شُبَّر، إذ أن هذه هي المرة الأولى التي يُحدثه شخص غريب فيها منذُ زمن طويل, وما أجمل حديثه إذ كان ذلك الحديث كله يصب في واقع شُبَّر حقيقة. وعندما انصرف عنه ذلك الشاب الغريب جاء أخوه شُبير وصديقه طه مسرعين.

شُبير ينادي: أخي شُبَّر.

لم يجبه شُبَّر إذ أن عينيه ما زالتا تشيعان ذلك الشاب الغريب أثناء رحيله.

شُبير وقد كرر النداء: أخي شُبَّر.

شُبَّر وعندما أفاق من السرحان: ماذا هناك يا عزيزي شُبير؟

شُبير بتعجب: أتسألني أنا ماذا هناك؟! ، لست على عادتك بعد أن كلمك ذلك الشاب الغريب. هل تعرفه؟ وما الكلام الذي دار بينكما؟

شُبَّر وهو في حيرة من أمره فكأن هناك أمراً ملفتاً لشيء لا يعرفه في أمر ذلك الشاب الغريب: لا ..... لا شيء هناك يا أخي, لنذهب إلى البيت. وأنت يا عزيزي طه, إن أمي قد صنعت الكعك الذي أُفضله, وأرغب أن نتناوله نحن الثلاثة معاً.

طه بابتسام: شكرا لك يا صديقي يسرني ذلك.

لما وصل الثلاثة معا إلى بيت يُعرف ببيت عبد الرحمن وهو نفسه بيت والد شُبَّر وأخيه الأصغر منه شُبير. كان قد حل المساء، لم يغادر ذلك الشاب الغريب من ذهن شُبَّر, فطوال الطريق كان يشغل تفكير شُبَّر لسبب لا يعلمه شُبَّر نفسه.

شُبَّر: أخي شُبير أنت و طه ادخلا إلى المتجر وتناولا الكعك الذي أخبرت طه عنه.

فأعقبه طه معاتبا: أبهذه السرعة أخلفت بوعدك لي يا صديقي! ألم نتفق بأن نتناول الكعك معاً؟

شُبَّر: أرجو المعذرة منك يا صديقي لكن لا وجود لأدنى شهية لديّ لتناول الكعك فأنت تعلم بحالي جيداً وما أسرع أن فقدتُ الرغبة في تناوله, أرجو أن تعفيني من هذا.

طه واضعاً راحة كف يده على كتف شُبَّر: حسناً، كما تريد يا عزيزي.

مضى شُبَّر إلى داخل بيته. ودخل كل من شُبير وطه إلى متجر عبد الرحمن الذي يصنع الخبز والكعك, حيث أن هذا المتجر كان مشهوراً جداً في هذه المدينة. لقد كان شُبَّر يدوِّر عجلات مقعده المتحرك إلى داخل البيت. فقال: إن لي الحق بأن أعاتب ذلك الشاب, فلمَ كان لقاء الصدفة معه قصيراً هكذا؟ يا لبُخله, ما الذي كان سيخسره لو أنه أطال حديثه معي, ذلك الحديث الذي تغنت به مسامعي؟

من داخل متجر الخبز, عبد الرحمن: مَن؟ طه؟؟ أهلا بك يا فتى, لقد افتقدناك يا بني بعد غيابك الطويل والمفاجئ.

طه: شكرا لك يا سيدي، هذا من حسن طيبتك.

عبد الرحمن: هل تعلم أن أم إليا قد حضّرت لكما كعكاً شهياً؟ لكن مهلاً لقد أخبرني شُبَّر بأنكما ستتناولان ذلك الكعك معاً، فأين هو؟

أجاب شُبير: نعم يا أبي , لقد قال بأنه لا يملك أدنى شهية لذلك, علماً أنه قد طلب من طه بأن يتناول الكعك معه, ذلك الكعك المفضل لديه، ولكن حالما وصلنا إلى هنا حتى انقطعت شهيته فجأة حسب ما قال ذلك لنا.

عبدالرحمن: يا إلهي متى تُكتب العافية لشبر ليتعافى ونتعافى جميعاً؟

طه: أسأل الله أن يعافيه عاجلا غير آجل .... فأعقبه عبدالرحمن: شكرا لك يا بني.

أخذ شُبير وطه بتناول الكعك, ذلك الكعك الذي يفضله شُبَّر كثيراً. أثناء ذلك تدخل السيدة كوثر إلى المتجر من باب يربط بين المتجر وبيت السيد عبدالرحمن بعد أن خرج منه السيد عبدالرحمن. السيدة كوثر هي نفسها التي تسمى أم إليا والدة كل من شُبَّر و شُبير, وهي تحيي طه: طه بعد كل هذا الغياب!, كيف حالك يا بني؟ ولمَ هذا الغياب الطويل عنا؟

طه بابتسام: الحمد لله يا سيدتي، وأشكرك لافتقادك لي. أما غيابي فأنتِ تعلمين بأن عملي يحول دون لقائي بكم مؤخراً.

وفي غمرة حديثهم يدخل إلى المتجر شاب عمره يقارب عمر شُبَّر و صديقه طه ويحمل بيده كتاب عنوانه (خطاب الأرواح). وأثناء دخوله إلى المتجر شعرت كوثر بزيادة ضربات قلب غريبة، لم تشعر بها من قبل و لا تعلم ما سببها، وكأنها تقول: أين رأيت هذا الشاب من قبل يا ترى؟!, ذلك الشاب الذي يشبه ولدها شُبَّر كثيراً, لقد كانت في تساؤل شديد الحَيرة, فهل ظنت أنها قد رأت هذا الشاب من قبل لأنه يشبه شُبَّر؟ أم إنها فعلا قد رأته سابقاً؟!

الشاب وهو يلقي التحية بابتسامة: مساء الخير.

أعقبته كوثر مع تلعثم وتوتر: مساء الخير. أهلا, أهلا بك.

الشاب الغريب: هل يمكنني شراء الخبز يا سيدتي؟

ردت كوثر وأثناء توترها الشديد ولأول مرة ترى هذا التوتر في نفسها مع الزبائن، إذ عُرف عنها وبطريقتها الرائعة في التعامل مع الزبائن: نعم، نعم أيها السيد. أي نوع من الخبز تريد؟

الشاب الغريب: أريد خبز اللفائف.

كوثر: حسناً ، حسناً. كم رغيف من الخبز تريد أيها السيد؟

الشاب الغريب: أربعة لو سمحتي يا سيدتي.

كوثر والتوتر ما زال سببه مجهولاً: حسناً، حسناً لك ما تريد.

أما شُبير وطه فيعرفان هذا الشاب، فهو نفسه ذلك الشاب الذي استغربا وجوده في هذا الحيّ من المدينة, والذي رأوه عصر هذا اليوم عند النهر والذي تكلم مع شُبَّر.

ناولت كوثر كيساً يحتوي على خبز اللفائف الذي طلبه ذلك الشاب وأعقبت قائلة: أيها السيد..... وقاطعها ذلك الشاب.

الشاب الغريب: يمكنكِ أن تناديني ياسين يا سيدتي.

كوثر: ياسين؟ حسناً، هل أنت من هذه المدينة يا ياسين؟

ياسين وهو يُخرج ثمن الخبز من محفظته: للتو انتقلت إلى هذه المدينة و أسكن في الحي المجاور....خذي يا سيدتي.....تفضلي... هذا ثمن الخبز.

كوثر بابتسامة: بما أنك زبون جديد لنا, فحساب الخبز هذه المرة عليَّ.

ياسين بتردد: لكن... وقاطعته كوثر: أنا أصر يا ياسين.

ياسين: حسناً، شكرا لكِ يا سيدتي.

كوثر: على الرحب والسعة يا بني.

غادر ياسين المتجر وسط تشييع نظرات كوثر التي كانت تقول أثناء خروج ذلك الشاب من المتجر: **"أنا أؤمن بوجود شيء يسمى رسائلُ الغيب, ولست أؤمن بوجود شيء يُسمى مصادفة"**, فلمَ تغيرت نبضات قلبي عندما رأيت هذا الشاب وهو يدخل المتجر؟ هل هناك شيء في الغيب لا يعلمه إلا الله؟.

كانت كوثر تريد أن تحدث ذلك الشاب فقد كان وجهه مألوفاً ليس لأنه يشبه شُبَّر لحد كبير. بل لأنها كانت تشعر بأنها تعرفه قبل هذه اللحظة بالذات. حيث قالت كوثر عن هذا اللقاء .... انتهى بلمح البصر.

طه: حسناً، أنا استأذنكم فقد تأخرت عن والدتي.

رد كل من كوثر و شُبير: مع السلامة وبلغ سلامنا لوالدتك.

شُبير لوالدته: أمي ما الذي أصابك عندما قمت ببيع الخبز لذلك الشاب؟ فقد بدا التوتر واضحاً عليك، ما السبب؟

كوثر: لا اعلم يا عزيزي, فكأنني قد رأيته من قبل ولا أعلم شيئاً غير هذا.

ثم استطردت تقول: هيا يا عزيزي لنغلق المتجر ونذهب للعشاء.

على مائدة الطعام جلس كل من عبد الرحمن وكوثر وشُبَّر و شُبير.

عبد الرحمن إلى شُبَّر: بني شُبَّر يجب أن تجبر نفسك على أكل الطعام. فطبيبك قال قد تتحسن صحتك إذا كانت لديك تغذية جيدة, غير أني أراك وكأنك سارح بتفكيرك.

شُبَّر: حسنا يا أبي , سآكل.

الجميع لا يعلم بأن شُبَّر كان يفكر بذلك الشاب ويردد كلماته:

"مهما كانت الحياة قاسية معنا لابد وأن يكون هنالك أمل يربطنا بالسعادة**"**.

فقد زرعت هذه الكلمات حب ذلك الشاب الذي لا يعرف اسمه حتى الآن في قلب شُبَّر, فقد زرع ذلك الشاب في قلب شُبَّر الأمل بأنه سيتعافى. و أيضاً كان يأمل بأن يلتقي بـ(ياسين) مرة أخرى. ذلك الشاب الذي لم يغادر مخيلته حتى اللحظة. لكن كيف .....كيف يستطيع أن يحظى بلقائه وهو لا يعرف عنه أي شيء؟. لا اسمه ولا حتى عنوان سكنه. وبسبب شوقه لذلك الشاب الغريب قال في نفسه: أن تفارق شخصاً قد أعجبتك أخلاقه وحسن كلامه ودخل قلبك وأحببته, صادفته في الطريق أو في أي مكان آخر, فلا تعرف اسمه ولا عنوانه, فهذا فراق لا يحسد عليه صاحبه كما يقولون.

وأثناء ذلك قال شُبير مخاطباً شُبَّر: شُبَّر أتذكر ذلك الشاب الذي التصقت ورقة كتابه بوجهك عندما حملتها الرياح عصر هذا اليوم؟

شُبَّر وقد احمرت وجنتاه فقد ظن أن أخاه شُبير علم أنه يفكر بذلك الشاب الذي لا يعرف اسمه حتى اللحظة: نعم، أذكر يا أخي, ولكن ما الذي ذكرك به الآن يا شُبير؟

شُبير: لقد جاء إلى متجرنا هذا المساء لشراء الخبز.

شُبَّر وهو متفاجيء: حقاً؟

شُبير: نعم.

شُبَّر: هل هو غريب عن مدينتنا؟ وما اسمه؟ وأين يسكن؟.....حيث صمت شُبَّر قليلاً بسبب خجله من عائلته, لأنه قد علمَ أنه بالغ بإلقاء الأسئلة قليلاً حسب ظنه.....

شُبير, بعد أن تفاجئ من وابل الأسئلة التي بدرت من أخيه شُبَّر: لقد سألته أمي في ما إذا كان من مدينتنا أم لا, فقال بأنه قد انتقل لتوه إلى هذه المدينة ليسكن فيها, وهو يقطن الآن في الحي المجاور . ويدعى ياسين .

شُبَّر وقد زادت شهيته للطعام, حيث بدأ يأكل بسرعة أكثر من المعتاد بسبب التفكير في أمر ذلك الشاب ياسين, حيث قال في قرارة نفسه: ياسين إذاً, لن

أنسى هذا الاسم أبداً, وسأبحث أبحث عنه حتى لو اضطررت للبحث عنه بمفردي. سأجده..... نعم سأجده.

استفسر والد شُبَّر وشبير عن الكلام الذي يدور بينهما فقص عليه شُبير ما جرى بين شُبَّر وذلك الشاب ياسين عصر هذا اليوم. غير أن والدتهما لاحظت أن شُبَّر لديه فضول من الاهتمام حول معرفة ذلك الشاب ياسين و الذي لا تعلم سبب اهتمامه هذا. وزادت غرابتها أكثر عندما بدأ شُبَّر بالأكل بصورة لطالما أحبت أن تراه عليها لحظة أن أخبره شُبير بقدوم الشاب ياسين إلى متجرهم.....

(2)

لأرثينَّك ما دمتُ حياً

إلى الحي المجاور حيث يقطن طه ووالدته حليمة في بيت ميسور الحال. لحظة دخول طه إلى البيت وهو مغتمّ, قالت والدته: لمَ هذا التأخر يا بني؟ لقد كنتُ قلقة عليك.

طه: أنا آسف لتأخري يا أمي لكني كنت مع شُبَّر وشبير إذ أصرا عليَّ باصطحابهما إلى منزلهما.

حليمة وهي توزع ثلاثة أطباق على مائدة الطعام: أرجوك لا تكرر هذا التأخر مرة أخرى يا بني. ثم أخبرني كيف حال شُبَّر؟ ألم تتحسن حالته؟

طه وهو يجلس على الأريكة القريبة من مائدة الطعام: لا, يا أمي لا يوجد أي تحسن يُذكر في حال شُبَّر, فما زال وضعه هو على حاله, قليل التغذية ودرجة الحرارة غير المستقرة و نحول الجسم, وإذا استمرت حاله على هذا النحو فقد يصاب بكآبة خروجه منها سيكون مستحيلاً وتزداد حاله نحو الأسوأ أكثر, للأسف يا أمي هذا ما أخبرني به أخوه شُبير.

حليمة وهي ما زالت ترتب أواني مائدة الطعام تحضيراً للعشاء: يا الهي شاب كـ(شُبَّر) لا يستحق هذا.

والدة طه وقد رأت الحزن بادٍ على وجه طه: ما الأمر يا بني، لمَ هذا الحزن؟

طه وقد طأطأ رأسه للأرض: كيف لا أحزن يا أمي وإن أبي قد ترك لنا ثروة كبيرة جداً ولا نملك منها شيئاً، بل حسدنا عمي اللئيم وأخذها كلها منا ولم يراعنا في غربتنا بعد أبي.

طه وعندما قال ذلك الكلام راحت دموعه تسيل على خده و تتساقط دمعة تلو الأخرى على الأرض ويداه تقبضان على بعضهما بقوة. حيث جلست والدته بقربه على الأريكة واضعة راحت يدها على رأسه, تمسح على شعره الأسود الداكن, تقبله بجبينه. وبيدها الأخرى تحاول بها مسح دموعه مخففة عنه قائلة: عُدنا إلى نفس الكلام يا بني؟ وما الذي ذكرك بهذا الآن؟

وبتجهم يعقب طه: ولمَ لا يا أمي؟ أبي قد ترك لنا أملاكاً ما أكبرها وأكثرها، ولم نحصل على أي شيء منها! أملاكاً يا أمي لو لم يسرقها ذلك العم الحاقد لكنا اليوم في عيش هانئ. أين كنا وأين أصبحنا يا أمي. أمن العز إلى الذل؟ ورغم كل هذا أنا أعمل في معمل مواد البناء وبأجر بالكاد أن يطعمنا نحن الأثنين معاً. للتو قد رأيت زوجة عمي اللعين. وهي متجهة نحو قصرها ومحاطة بعدد كبير من الحراس, كل ذلك كان من حقنا نحن يا أمي من حقنا نحن ..... فضلا عن الطبق الثالث الذي قمتي بوضعه على طاولة الطعام لكي لا تنسي أبي رحمه الله.

الأم وبيديها الساحرتين وبهمساتها الساحرة التي قد تسكت بركان عن الانفجار. هدّأت من حزن طه قليلاً، ذلك الحزن الذي يتسلل إلى قلبه بين الحين والآخر ليذرف طه دموعه حزناً على والده الذي توفيَّ منذ سنوات

ليست بالقليلة, و على إرثه الذي سرقه عمه منه بحسد وطمع وجشع!. وبيدي الأم الساحرتين وبهمساتها وقبلاتها نام طه على صدرها, نام طه وهو مكسور الخاطر, بل نام طه وهنالك بصيص أمل مازال فيه رمق لينبض ويخبره بأنه سيسترجع كل حقوقه من عمه الظالم ذات يوم. نام طه لتكمل والدته البكاء وحدها وترثي زوجها وتعاتبه على أخيه الذي سرق كل ما تركه زوجها من أملاك لها ولولدها طه.

فجأة يُطرق الباب ونادراً جداً ما يطرق باب منزل والدة طه في هذا الوقت من الليل! مصحوباً باستيقاظ طه وتساؤله من الطارق؟

والدة طه: من الطارق؟

صوت من خلف الباب يقول: هذه أنا رحيل.

حليمة وهي تشرع بفتح الباب: رحيل؟! أهلا بكِ يا عزيزتي.

تتجاوز رحيل عتبة الباب قليلا وهي ذات عمر يبلغ الأربعين ووجها وجه الشباب بعض الشيء, وبيدها طبق مغطىً بقماش أبيض.

والدة طه وهي تحيي رحيل: أهلا بجارتنا الجديدة والعزيزة.

رحيل بابتسامة: شكرا لكِ يا عزيزتي حليمة. ولكن عصر هذا اليوم وبسبب ثرثرتنا نسيت أن أعطيك عربون صداقتنا. .....ناولت رحيل الطبق لحليمة

وهما تضحكان معاً، وكل هذا وطه يتساءل من هي رحيل؟ حيث أن رحيل قد لاحظت أن طه يستغربها فهو لم يتعرف عليها بعد.

رحيل: يبدو أن هذا الوسيم هو ولدك طه الذي أخبرتيني عنه, أليس كذلك يا عزيزتي حليمة؟

حليمة وهي تنظر لقرة عينها: نعم, هذا هو مهجتي و زهرة بيتي طه ...ثم استطردت قائلة: بني طه هذه جارتنا الجديدة رحيل, لقد انتقلت لتوها إلى هذه المدينة مع ابنها ياسين تعال وألقِ التحية عليها.

طه وهو ينهض ويتقدم إلى السيدة رحيل و يعبر عن احترامه لجارتهم الجديدة : أهلا بك يا سيدتي. يسعدنا أن تكونوا جيراناً لنا.

رحيل: ما شاء الله، يا له فتىً لبق الكلام, أهلا بك يا بني.

حليمة إلى ولدها طه: هي قد انتقلت إلى هنا منذٌ ثلاثة أيام تحديدا لتسكن في حينا مع ولدها ياسين. ستتعرفان على بعضكما لتكوّنا صداقة جميلة معاً.

طه: أعتقد أنني أعرفه فقد رأيته عصر اليوم قرب نهر المدينة, وكذلك قد رأيته مساء هذا اليوم أيضا وهو يتسوق الخبز من متجر الحي المجاور. فقد استغربت وجود شخص غريب هذا اليوم في ذلك الحيّ.

رحيل إلى طه: هذا صحيح يا بني لقد طلبت منه أن يشتري لنا الخبز من متجر ما في هذه المدينة ... ثم أعقبت: حسناً يا حليمة أراكِ غداً.

حليمة وهي تمازح رحيل أثناء ما همت الأخيرة بالخروج من بيت والدة طه: نعم اراكِ غدا لنكمل ثرثرتنا.

ودعت رحيل حليمة, حيث كان الوداع مصحوباً بضحك السيدتين معاً.....

(3)

لهيب شوقٍ مجهول

في صباح اليوم التالي ولأول مرة يستيقظ شُبَّر من نومه و روح التفاؤل تملأ صدره، ذلك الصدر المليء بأوجاع السُعال، واليأس من الشفاء، ولأول مرة وبالرغم من إعاقته فقد استطاع وبعد جهد أن يتحول من فراش نومه إلى كرسيه المتحرك بنفسه. فتح باب الغرفة بهدوء كي لا يفيق شُبير الذي كان يشاركه الغرفة على صوت فتح الباب. ولما خرج تفاجأت الأم لاستيقاظ شُبَّر وحده مع تساؤلات كثيرة، منها لمَ استيقظ شُبَّر مبكراً على غير عادته؟ و من ساعده ليتحول من الفراش إلى كرسيه المتحرك؟ حيث أجاب بتوتر بعد أن سألته بكل ما كان يدور برأسها, لأنه خشيَّ أن تشعر والدته أن خلف كل ذلك هدف يدور برأسه: لديَّ رغبة بالجلوس في المتجر هذا اليوم، وأنا من ساعدَ نفسي على أن أستقل الكرسي يا أمي. ثم هل تناولتما الفطور أنتِ وأبي؟ لأني أريد أن أتناول الفطور معكما!

الأم وهي تخلط ما بين الاندهاش والفرح, قالت وهي وتضم شُبَّر إلى صدرها: حسناً يا بني للتو وضعنا الفطور وسنتناول الفطور معاً. ولكن لا تتعب نفسك بأن تنتقل من فراشك إلى كرسيك المتحرك مرة أخرى أرجوك, فأنا أخاف على صحتك.

شُبَّر وبريق عينيه سيلاحظهما الناظر إليه: أمي أعدكِ بأني سأحاول أن أتماثل للشفاء.

كوثر وقد بانت معالم الدموع على أطراف أجفانها: حسنا يا بني كلي ثقة بك وأنا سأساعدك على ذلك, بل كلنا سنساعدك يا حبيب قلب والدتك.

لم تكن نية شُبَّر كذلك وأقصد تحديداً هدفه من استيقاظه مبكراً, بل إنه كان يريد أن يرى الشاب ياسين مجدداً، فعندما سمع بأن ياسين قد اشترى الخبز من متجرهم ليلة البارحة, خطط لأن يجلس في المتجر لعل ياسين يأتي ليشتري الخبز من متجرهم مجدداً, ليتحدثا معاً, ولكن لسوء حظ شُبَّر لم يأتِ ياسين ليشتري الخبز من متجرهم حتى حل المساء ووقت إغلاق المتجر..... حينها كتب بورقة وقلم أخذهما من المتجر, وقد أحنا رأسه إلى الأرض كشخص منكسر أصابه اليأس, وكأنه قد خسر شيئاً ما, شيئاً ثميناً عزيزاً على قلبه, حيث كتب:

" لقد قلتها سابقاً أن تفارق شخصاً قد أعجبتك أخلاقه وحسن كلامه ودخل قلبك وأحببته, صادفته في الطريق أو في أي مكان آخر, فلا تعرف اسمه ولا عنوانه, فهذا فراق مُرٌ مذاقه لا يحتمل, و لا يُحسد عليه صاحبه. ولكن حان الوقت الآن لأعاتب ياسين ذلك الفتى الذي ترك فراغاً في قلبي رغم أننا لم نتعرف على بعضنا البعض بعد. سأُعاتبه عتاب شخص كسره انتظارٌ خاسرٌ صاحبه. يا ترى ما الذي كُنتَ ستخسره يا ياسين لو أنك أتيت لتشتري الخبز منا هذه الليلة أيضا, لأراك وتراني بل لترى هذا المقعد الحزين الذي

ستحرمه من عشاء هذه الليلة بعد أن وعد والدته فرحاً بأنه سيحاول أن يتماثل للشفاء.....ما الذي أخرك لترى هذا الشخص المقعد المنكسر الذي زدتهُ من حيث لا تعلم يأساً إلى يأسه, كم أنت قاسي القلب يا ياسين؟. ليتك يا ياسين بل ليتك يا عزيز قلب شخص شعر بالانكسار, ترى هذه الرسالة التي كتبتها بخطٍ سأسميه (الخط الحزين) والتي لا أعلم هل ستقرأها أم لا؟ ولا أعلم كيف أوصلها إليك؟ أم إني سأحتفظ بها كما سأحتفظ بخيبة أملي على أن ألتقي بك هذا اليوم؟ .....

التوقيع شخص سيزداد ألمه هذه الليلة, بسبب ما تعرض له من خيبة أمل".

وقبل الإغلاق جاء شُبير مسرعاً ومرتبكاً, وكأن هناك أمراً خطيراً قد وقع.

شُبَّر إلى شُبير: ماذا هناك يا شُبير؟

شُبير: مجموعة من عصابة العقارب قاموا بمهاجمة متجر بالقرب من هنا..... وأعقبت والدته: وما الذي يريده أولئك المشاكسون هذه المرة؟

فأجابها شُبير: الضرائب.

كوثر: الضرائب؟ وأي ضرائب؟

شُبير: لقد فرضت تلك العصابة على بعض متاجر هذه المدينة ضرائب، والمتجر الذي لا يدفع الضرائب يقومون بتخريبه.

شُبَّر: إن لم تستح فافعل ما شئت.

كوثر: وما الذي حدث مع ذلك المتجر؟

شُبير: لقد دافعنا عنه أنا وطه وآدم وقد ساعدنا ياسين، ذلك الشاب الذي اشترى الخبز منكِ ليلة أمس يا أمي. فلولاه لما استطعنا الإفلات منهم لا نحن ولا صاحب المتجر, لقد كانوا مجموعة تتكون من أربعة أشخاص أقوياء والشر يتطاير من أعينهم ...وقاطعته والدته كوثر: وهل أصبت بمكروه ما يا عزيزي؟

شُبير: لا يا أمي, فلقد لقناهم درساً لن ينسوه .

شُبَّر وقد غمرته فرحةً لم يشعر بها من قبل, لحظة أن سمع باسم ياسين, وقال بعد أن تكتم عليها: وكيف استطاع ياسين مساعدتكم؟ وأين هو الآن؟

شُبير بحماس: لقد أرسل آدم ليبلغ الشرطة بالأمر وبقي ياسين معنا, لقد تشاحن مع اثنين منهم وأنا وطه وصاحب المتجر تشاحنا مع الاثنين الآخرين حتى أتى رجال الشرطة وهرب العقارب الجبناء. صدقني يا أخي لقد أوسعناهم ضرباً.

الأم إلى شُبير: لكن على حد علمي أن ياسين يسكن في الحي المجاور ما الذي أتى به إلى هنا؟

شُبير: لقد كان في طريقه إلى هنا لشراء الخبز, وبذلك صادف هجوم العقارب على ذلك المتجر. لقد طلب مني أن أسبقه إلى هنا قبل إغلاق

المتجر, لكي يستطيع شراء الخبز قبل الإغلاق. فيما بقي هو مع الأصدقاء وصاحب المتجر, لإغلاق ذلك المتجر الذي تهجم عليه العقارب.

أثناء ذلك يدخل ياسين إلى المتجر, ياسين ذلك الشاب الذي انتظره شُبَّر طوال اليوم ليتحدثا معاً ويصغي لكلامه العذب الجميل الذي يبعث الأمل في النفس المنكسرة.

ياسين: مساء الخير.

رد الجميع: مساء الخير.....إلا شُبَّر لأنه كان مشغولاً بالتمعن بوجه ياسين وضربات قلبه المتسارعة هذه المرة أيضاً. أما كوثر فلا تعلم لمَ بقدوم هذا الشاب هو نفسه (ياسين) تشعر أيضاً بضربات قلبٍ غريبة؟! أهو شعور غيبي يخبرها عن شيء ما؟ أم أنها رسائل الأرواح؟ كوثر في تساؤل شديد الحَيرة, فلمَ عندما تنظر لهذا الشاب يصرخ قلبها الحنون: يا كوثر إنه فجر اللقاء.....

وعندما اشترى ياسين الخبز منهم قالت كوثر: لقد حدثنا شُبير عن ما جرى مع المتجر الذي هجم عليه أولئك المشاكسون و كيف قمت بمساعدتهم.

ياسين: في الحقيقة شُبير وأصدقائه هم من أنقذوا الموقف, إذ قام أحد أصدقائه باستدعاء رجال الشرطة وبذلك هربت تلك العصابة .... .لمح ياسين خروج شُبَّر من المتجر من خلال الباب الذي يربط ما بين المتجر وبيتهم..... ثم نظر ياسين إلى شُبير وقال: شُبير يسعدني أن أتعرف عليكم أنت وأصدقائك,

إذ أنني جديد في هذه المدينة, وأريد تكوين صداقة جديدة معكم إن لم يكن لديكم مانع لذلك.

شُبير: بل يسعدنا ذلك يا ياسين.

ياسين وهو يمد يده لمصافحة شُبير: حسناً إذاً، أحضر أصدقائك إلى المقهى الذي يقطن على حافة النهر, في هذا الحي لنلتقي.

شُبير: اتفقنا إذاً .

لقد تسلل شُبَّر إلى خارج البيت، إذ خرج من المتجر من خلال الباب الذي يربط ما بين البيت والمتجر ومن ثم خرج من البيت، ليحظى بلقاء ياسين على انفراد. ولما خرج ياسين بعد شراء الخبز من المتجر إذ وجد شُبَّر بانتظاره. ياسين إلى شُبَّر: هذا أنت ؟..... كنت أريد أن أتعرف عليك إلا أنك خرجت من المتجر ولم تسنح لي الفرصة بذلك، أقدم لك نفسي ياسين.

مد ياسين يده إلى شُبَّر للمصافحة، وأعقبه شُبَّر بذلك أيضاً: وأنا شُبَّر، في الحقيقة انتظرتك طوال اليوم في المتجر لكي أُعرفك بنفسي إلا أنك لم تحضر يا ياسين، فلا اعرف عنوان بيتك ولا أعرف وجهة غير المجتر لأنني علمت بأنك اشتريت الخبز من هنا ليلة البارحة. فكنتُ متيقناً بأنك ستشتري الخبز منا مجدداً, خذ هذه الرسالة, لقد كتبتها لتوي قبل مجيئك بدقائق.

ياسين بعد أن أخذ الرسالة, وهو يحاول فتحها: حقاً؟ وهل هناك أمر متعلق بي لتنتظرني كل هذا الانتظار يا شُبَّر؟

ياسين بعد أن أكمل قراءة الرسالة: يا ليَّ من شخص قاسي القلب حقاً, ولكن والحق أقول لو علمت بأنك تنتظرني هكذا لأتيت راكضاً إليك حافي القدمين, فالذي كتب هذه الرسالة لهو صادق القلب حقاً. ولكن لم أكن على علم بهذا الانتظار .....قاطعه شُبَّر: هون على نفسك يا ياسين, ومن أين لك أن تعلم بانتظاري لك؟

ياسين : لي الشرف في التعرف عليك يا شُبَّر, واعتذر لك ثانية إذ جعلتك تنتظر طوال اليوم, فلم يكن لي علم بذلك.....

شُبَّر: لا تهتم يا ياسين أرجوك.

ياسين بابتسامة: هل يمكنك أن تأتي مع شُبير غداً لنتعرف على بعضناً أكثر؟ لقد أعلمته في المكان الذي سنلتقي فيه.

شُبَّر يعقبه بابتسامة أيضاً: يسعدني ذلك .....أثناء ذلك إذ قدم شرطي إلى المتجر ليشتري الخبز وقبل دخوله المتجر: مرحباً شُبَّر كيف حالك يا بني؟

شُبَّر: أهلا بالشرطي أمين العزيز, كيف حالك؟

الشرطي: حمداً لله إذ أنني استطعت القدوم للمجتر لشراء الخبز قبل موعد إغلاقه .....يدخل الشرطي إلى المتجر .

ياسين : حسناً يا عزيزي شُبَّر أراك غداً إذاً.....

(4)

روح القيادة

في اليوم التالي اجتمع كل من (شُبَّر وشُبير وطه وآدم وفارس و نجاح و نعيم و زهير)، اجتمع كل هؤلاء الأصدقاء على الطريق المؤدية إلى النهر بعد أن أبلغهم شُبير بأن يحضروا قرب المقهى الذي يقطن على حافة النهر, ذلك المقهى الذي اختاره ياسين في وقت هو حدده لهم مع شُبير. اجتمع الأصدقاء عند متجر الخبز متجر عبدالرحمن حيث كان نقطة الانطلاق.... وعندما سأل فارس عن الأمر المهم الذي أخبرهم به شُبير.. حينها قال شُبير: سأعرفكم على صديق جديد يريد الانضمام إلى مجموعتنا... .أعقبه فارس: ومن هذا الصديق الجديد؟

شُبير: يدعى ياسين وهو... .فقاطعه نجاح: أتقصد ياسين ذلك الشاب الذي انتقل إلى هذه المدينة من أيام قلائل؟

شُبير: أتعرفه؟..... فتدخل نعيم: بالطبع نعرفه, لقد أنقذنا أنا ونجاح و فارس من أن نقع في فخ عصابة العقارب, لقد ساعدنا وأفلتنا من الوقوع في معركة خاسرة معهم ... .فقال آدم: ونحن كذلك فقد ساعدنا أنا و طه وشبير بالتصدي لهجوم عصابة العقارب على متجرٍ في هذا الحي. إنه فتىً شجاع و طيب القلب حقاً.

زهير: أما أنا فلم أحظى بفرصة التعرف عليه بعد.

شُبَّر وهو جالس على كرسيه المتحرك والذي يدفعه أخوه شُبير: إن عصابة العقارب تمادوا كثيرا في أفعالهم الشريرة. فهم قد علموا أن هذه المدينة لا يوجد فيها من يتصدى لهم من ساكنيها، فرجال الشرطة لا يستطيعون فعل شيء تجاههم ما لم يتعاون أهل هذه المدينة مع الشرطة. وأهل هذه المدينة يخافون من بطشهم.

أثناء الحديث الذي دار بين الأصدقاء عن عصابة العقارب, فالبعض يريد التصدي لهم والبعض الآخر يرفض ذلك لأنهم يظنون أنهم ليسوا نداً لتلك العصابة الشرسة. حتى قاطعهم شُبَّر: أليس ذلك هو ياسين الجالس هناك؟.....حيث كان ينتظرهم على إحدى طاولات المقهى على شرفة تطل على حافة النهر, وهو غارق بقراءة كتاب.

حيث أجاب نجاح بالإيجاب: نعم، إنه هو، ولكن حتى الآن لم يحضر كل من سامر و مراد.

زهير: سيتعرفان عليه لاحقا.

اجتمع الأصدقاء، حيث كان ذلك الاجتماع هو الاجتماع الأول وهو اجتماع التعارف كل منهم عرف عن نفسه، تسامروا تضاحكوا معاً، والبهجة كانت مرسومة على وجوههم بخطها العريض. حتى جاء مراد يهرول بوجهه الشاحب. هنا حُبست أنفاس الجميع بصوت واحد, والتعجب والذهول من حالة مراد التي قدم فيها, أخمد ضحكاتهم مرة واحدة. وتحولت تلك الوجوه

المبتهجة إلى وجهوه يعتريها القلق بعيون متسعة حيث قال مراد بوجهٍ حزين وصوت كسره اليأس, بصوت يصاحبه عدم الاستطاعة على أن يتكتم على العبرة التي خرجت مع صوته: لقد أخذوا أخي سامراً.

فارس بذهول من حالة مراد التي قدم عليها, وبصوت مرتفع: من أخذه؟!

مراد: إنهم رجال الشرطة.

زهير وهو يمسك يد مراد بيدٍ ويده الأخرى على كتفه ليجلسه على مقعده إلى الطاولة التي كانوا مجتمعين عليها, وهو يحاول أن يهدأ من روعه: ولماذا يا عزيزي؟ ما السبب؟

مراد: لأنهم يظنون أنه متورط مع عصابة العقارب في فرض ضرائب على بعض متاجر هذه المدينة.

ياسين وهو يقدم له الماء: وهل هو حقاً متورط معهم.

مراد وبكل ثبات: أقسم لك أنه بريء من هذه التهمة ...قال هذا الكلام وهو يستغرب هذا الشاب فهو لم يتعرف على ياسين بعد, إلا انه قد خمنّ من يكون, لأن شُبير قد اخبره سابقاً.

شُبَّر: لكن لمَ اتهموه هو بالذات على أنه متورط معهم؟

مراد: لأن عصابة العقارب قد طلبوا منه الانضمام لمجموعتهم فرفض ذلك، بعدها نصبوا له فخاً فأوقعوه على أنه أحد أفراد العصابة, حيث استدرجوه

لأحدى متاجر المدينة، وقتها كان لدى رجال الشرطة خبر بأن أحد أفراد تلك العصابة القذرة سيقدم لنفس المتجر ليأخذ الضرائب فأمسكوه على أنه وقع بالجرم المشهود, وقد طلب مني أن أخبركم على أمل أن تساعدوه.

نعيم: وما الحل الآن يا جماعة؟ عصابة العقارب ليس من الهين مواجهتها وجها لوجه, فهم شرسون وعددهم يفوق عددنا أضعافاً مضاعفة, بل سمعت أن تعدادهم يصل حتى الخمسمائة شخص.

مراد وهو يمسك بيد شُبَّر: أرجوكم أمي لن تتحمل ذلك, وضعها صعب عندما سمعت بأن رجال الشرطة قد قبضوا على أخي سامر.

شُبَّر وهو يربت على كتف مراد هون عليك يا صديقي... ثم يلتفت إلى أصدقائه: ما العمل الآن يا أصدقاء؟ لمَ هذا السكوت!

ياسين وهو ينهض بكل ثقة وثبات: اسمعوني يا شباب يجب أن نساعد سامر وندخل السرور على قلب والدته بأي طريقة كانت.

شُبير: ولكن كيف ذلك يا ياسين؟

ياسين بعد أن جلس و وضع يده على كتف شُبير: أتذكر ذلك الشخص السمين من عصابة العقارب الذي تشاحنا معه ليلة البارحة أثناء قدومه مع أربعة من أفراد العصابة لأخذ الضرائب من متجر أحدهم؟

شُبير: نعم أعرفه, إنهم ينادونه (ثقيل).

ياسين وقد ضرب الطاولة التي يجلسون عليها بقبضته وبكل ثقة وحماس: عظيم إذاً، هذا هو هدفنا... ثقيل.

زهير: وكيف ذلك يا صديقي ياسين؟ أنت تعلم بان عصابة العقارب أقوياء جداً. فضلاً عن عددهم فهم كثيرون جداً, ولن نستطيع مواجهتهم بعددنا القليل هذا.

ياسين: ومن قال بأننا سنذهب لمواجهتهم بأجمعهم.

فارس: إذاً كيف سنصل إلى ثقيل؟

ياسين: اسمعني يا عزيزي فارس، سنمسك بثقيل بعد أن نستدرجه بطريقة ما ونرغمه على الاعتراف..... ثم ينظر إلى مراد بطرف عينيه: هذا إذا كان سامر ليس من العصابة حقاً.

مراد ينهض من كرسيه وبكل تجهم: أُأكد لك إنه بريء من هذه التهمة، أُقسم لك, لماذا لا تصدقني..... لقد كان مراد أصغرهم سناً ولم يكن يستطيع أن يحافظ على مشاعره, فمثل هكذا موقف كانت دموعه على مشارف أجفانه, ولصغر سنّه لم تكن لديه المقدرة على كتمانها.

ياسين: لا بأس يا مراد, أردت التأكد فقط صدقني.

شُبير: ياسين هل تعلم أن ثقيل أحد أفراد عصابة العقارب؟ أليس هذا خطيراً؟

ياسين وهو يضع يده على كتف شُبير: عزيزي شُبير أذا كانت هذه حال مراد , فما حال والدته؟

مراد: أقسم لكم إن لم يخرج سامر من السجن فقد تسوء حالة والدتي أكثر وأكثر.

آدم وهو الآخر ينهض بثبات وثقة كبيرة: ياسين أنا معك، سنمسك بذلك السمين الذي يدعى ثقيل ونُخرج سامر من السجن, مادام أننا لن نواجه العصابة بأكملها.

نعيم ونجاح وفارس ينهضون أيضاً وروح الثقة تملئ صدورهم بل و تكاد أن تخرج من عيونهم لفرط حماسهم: ونحن أيضاً معكم ..... واستطرد فارس مازحاً: لنجازف هذه المرة, ولنجعلها مغامرة جماعية.

أثناء ذلك إذ ينظر شُبَّر بإعجاب كبير إلى ياسين وكيف برزت روح القيادة فيه بهذه السرعة. فضلا عن انه كان يريد أن يشاركهم في هذه المهمة ولكن.....ولكن حالته وكرسيه المتحرك حالا دون ذلك, لذا اكتفى بالصمت.

شُبير: وأنا أيضاً معكم يا أصدقاء, لكن علينا رسم خطة محكمة بدقة.... ثم يحول نظره إلى ياسين هل تفكر في خطة ما يا ياسين؟

ياسين: نعم. ولكن حتى الآن لم نسمع رأي شُبَّر، أهو معنا أم لا؟

شُبَّر وقد توتر قليلاً وأجاب بتلعثم وبابتسامة مصطنعة: لكن أنت تعرف حالي جيداً, هل أستطيع أن أنفعكم في شيء ما؟

ياسين وقد وضع يده على كتف شُبَّر: جزء كبير من الخطة التي سأضعها يعتمد عليك يا عزيزي.

شُبَّر وقد تفاجئ: حقاً! ولكن كيف؟... .يقاطعهما نجاح: نحن نصغي للخطة يا صديقي ياسين.

تكلم ياسين أثناء ما هم الآخرون بالجلوس: اسمعوا يا أصدقاء أولاً نحن نعلم بأن عصابة العقارب تجمع الضرائب من متاجر معينة من هذه المدينة فيجب أن نعرف أولاً من هي تلك المتاجر. والواضح أن ثقيل هو المكلف بجمع تلك الضرائب, حيث شاهدته لأكثر من مرة وهو يطالب المتاجر بدفع الضرائب والظاهر أن مهمة جمع الضرائب من المتاجر قد أوكلت إليه.

نجاح يقاطع ياسين والحماس يبدو واضحاً من خلال نبرات صوته: مرحا يا صديقي, وأنا أعرف المتجر القادم والذي يجب أن يدفع الضرائب، وعلى الأرجح سيكون موعد العصابة مع ذلك المتجر عصر هذا اليوم.

ياسين: هذا عظيم يا صديقي، لكن ينقصنا شيء آخر.

زهير: وما هو؟

ياسين: نحتاج إلى أزياء الشرطة، سيكون هذا أفضل إذ أن ثقيل لن يأتي وحده لذلك المتجر. فينبغي أن يتنكر اثنان منا على الأقل بزي الشرطة لإخافة الباقين حتى نتمكن من أن نُوقع بثقيل وحده.

فارس: دع هذه المهمة لي يا صديقي أنا أستطيع أن أدبر لك أزياء الشرطة ولكن... .يقاطعه ياسين: ولكن ماذا يا عزيزي؟

فارس: الأزياء التي استطيع أن أُدبرها لكم قد تكون قديمة بعض الشيء، أي أنها ليست كالتي يرتديها رجال الشرطة الآن.

ياسين: المهم أن تحضرها معك بعد ظهر هذا اليوم يا عزيزي فارس، فعندما يكون العقارب في حالة من الخوف والذعر من رجال الشرطة المزيفين لا يمكنهم التمييز بين زي الشرطة الحالي وزيهم القديم, فتفكيرهم سيكون مشغولا بكيفية الهرب فقط..... ثم ينظر ياسين إلى شُبَّر واضعاً راحة يده على كتفه: عزيزي شُبَّر, أعتقد أنك تعرف أحد رجال الشرطة أليس كذلك؟

شُبَّر: هل تقصد أمين؟ ذلك الشرطي الذي ألقى التحية عليَّ عندما كنا نتحدث قرب متجرنا ليلة البارحة؟

ياسين: نعم هو بالذات، فعندما نجبر ثقيل على الاعتراف فستكون مهمتك هي إبلاغ الشرطي أمين بذلك, وكذلك إبلاغه عن مكان ثقيل كي يلقي القبض عليه.

شُبَّر: حسناً هذا سهل، لأن الشرطي أمين متعاون معي, بل ومع كل عائلتي لأننا أقرباء.

نجاح: ياسين هل يمكنك شرح الخطة مع توزيع المهام علينا؟

ياسين: حسناً يا عزيزي، بما أن نجاح وزهير يتميزان ببُنية جسدية وطول مناسبين فمهمتهما التنكر بزي الشرطة.....نجاح وهو يضرب كف زهير والسرور واضحاً على وجهيهما: هذا رائع, لقد أعجبتني الخطة منذُ اللحظة.

ياسين يشرع بإكمال بناء الخطة: شُبير و طه و مراد حالما يستقر العقارب عند المتجر المُطالب بدفع الضرائب عليكم الظهور ومناداة الشرطة المزيفين أي زهير ونجاح, بأن العقارب تريد الهجوم على ذلك المجتر. في هذه اللحظة بالذات..... يقاطعه زهير فجأة: سنظهر أنا ونجاح ونجري باتجاه العقارب على أساس أننا نريد القبض عليهم.

ياسين: أحسنت يا صديقي. ثم هل يملك أحدكم حبلاً طويلاً بعض الشيء؟

طه: نعم، أنا أملك حبلاً طويلاً ومتيناً أيضاً، ولكن ما الفائدة منه يا ياسين؟

ياسين: سأخبرك ما الفائدة منه، فارس وآدم يجب أن يكمن كل واحد منكما على جانبي الطريق والذي يقع عندها المتجر وسيكون الحبل ممتداً بينكما. فعندما يجري العقارب يجب أن يجتاز الحبل كل العقارب المتواجدين هناك

باستثناء ثقيل.....يقاطعه آدم بحماس: وعندما يقترب ثقيل نشد الحبل أنا وفارس ليقع ذلك السمين على الأرض.

ياسين: أحسنت يا عزيزي آدم, هكذا يجب أن يكون.

فارس وهو يخاطب آدم مازحاً: لكن يا آدم عليك أن تثبت نفسك جيداً عندما يحين دورنا عند شد الحبل.

آدم: ولماذا؟

فارس: كي لا يسحبك ذلك السمين عندما تعلق إحدى قدماه بالحبل.

يضحك الجميع....ثم يقاطعهم ياسين: وأنا سأستأجر عربة ولن أحضر السائق معي، وأنا من سيقودها. وسننقل ثقيل فيها إلى خارج حدود هذه المدينة.

مراد مخاطباً ياسين: ياسين إذا أمسكنا بذلك السمين المعتوه أين سنحتجزه؟

ياسين: لا تقلق يا عزيزي مراد, أعرف مجموعة من البيوت المهجورة بالقرب من هذه المدينة، سنحتجزه هناك.....والآن يا أصدقاء, لنذهب وموعدنا بعد ظهر اليوم وسنجتمع هنا في هذا المقهى الذي سيكون نقطة الانطلاق.

تفرق الجميع و روح التكاتف والشجاعة بادية عليهم، ذهب فارس لإحضار أزياء الشرطة. في حين ذهب طه لإحضار الحبل الذي اخبر ياسين عنه،

وذهب مراد مسرعاً لوالدته وقدماه لا تكادان تحملانه. وهو ينادي والدته حتى قبل أن يدخل إلى منزله من شدة الفرح. حيث كانت والدته غارقة بدموعها والحزن الشديد يكاد يأكل وجهها.....

(5)

جبر خاطر أُم.....نُقش الحزن على قلبها

بعد ظهيرة يوم ذلك الاجتماع بدأ الأصدقاء بالتجمع واحداً تلو الآخر باستثناء شُبَّر لأن وضعه حال دون ذلك الاجتماع، حيث كان ينتظر بقلق نجاح الخطة ليبدأ دوره في إخبار الشرطي أمين عندما يُكتب النجاح لمهمة الأصدقاء. حيث ذهب الأصدقاء إلى المتجر الذي اخبرهم نجاح عنه, ذلك المتجر الذي ستطالبه العصابة بدفع الضرائب، حيث تمركز كل من فارس وآدم في أسفل الطريق والتي يقع عليها المتجر, وكل منهما اتخذ مكاناً للاختباء في الفروع الضيقة التي بين المنازل المتواجدة هناك, حيث كل منهما اتخذ موقعاً مقابلاً للآخر لشد الحبل، في حين تمركز بقية الأصدقاء في أعلى الطريق الواقعة على المتجر في أحد الفروع الضيقة والمتواجدة هناك والمقابلة لذلك المتجر. انتظروا... و انتظروا.... ثم انتظروا.... حتى أوشكت الشمس على المغيب.

زهير وهو متنكر بزي الشرطة ومن شدة ملل الانتظار: لماذا تأخروا حتى الآن؟

نجاح وهو الآخر متنكر بزي الشرطة أيضاً, والتوتر بادٍ على وجهه: أنا متأكد بأن هذا هو المتجر المقصود، ولكن لا أعلم لمَ تأخروا هكذا؟! فقد شكى صاحب المتجر ذات مرة لي, وقال بأن عصابة العقارب يقدمون إليه في نهاية هذا اليوم من كل شهر ليأخذوا الضرائب المفترضة عليه.

نعيم: ياسين ما هذا الكتاب الذي أراك غارقاً بقراءته؟

ياسين بابتسامة: انه كتاب اجتماعي, يتكلم عن مسؤولية الفرد في إصلاح المجتمع.

طه: وهل لكل فرد المسؤولية في إصلاح المجتمع؟

ياسين: الكل....الكل تقع على عاتقهم مسؤولية الإصلاح تجاه مجتمعه.

مراد: ولكن كيف ذلك؟

ياسين: لكل منا المقدرة على تقديم شيء يخدم مجتمعه سواء كان اختراعا أو كتابا أو أن يكون قائدا لمجموعة أفراد يبثون الوعي في مجتمعهم أو أي شيء في سبيل خدمة مجتمعه, ولكن سطور هذا الكتاب ركزت على أصحاب القلوب ذات التربة الخصبة.

زهير باستغراب: ومن هم أصحاب القلوب ذات التربة الخصبة يا ياسين؟

ياسين: إنهم الشباب يا عزيزي زهير, إنهم الشباب, ويقصدنا نحن بالمرتبة الأولى.

نجاح: ولماذا تطلق هذه الصفة على الشباب بالذات؟

ياسين: لأن الشباب هم الركيزة الأساسية في كل المجتمعات. فالمجتمع إذا ما أراد أن يرتقي بكل نواحيه يجب عليه أولا أن يبدأ بالشباب, نعم قد تكون

الطفولة والصبا الأساس واستغلالهما عامل مهم. ولكن الشباب قلوبهم كالتربة الخصبة ما يُزرع فيها ينبُت. ولو علم ذلك الشاب ما ينتظره في مقابل ذلك لأفنى حياته في سبيل أن يخدم مجتمعه, نعم فإنه حتما سيضحي بالوقت والمال وكل شيء, لأن المقابل لهو أغلى ما في الوجود, انه كنز عظيم حقاً.

شُبير: وما هو المقابل يا ياسين؟

فجأة يظهر ثقيل وهو يخرج من أحد فروع ذلك الشارع. ويظهر خلفه مباشرة خمسة من أفراد العصابة, عصابة العقارب.

نجاح وقد انتابه الخوف والتوتر بعض الشيء: لقد ظهروا إنهم هناك.

ياسين وهو يغلق الكتاب الذي كان بحوزته والذي كان يقرأه أثناء انتظار العقارب: استعدوا يا أصدقاء لقد اتفقت مع صاحب المتجر بأن يرفض تسليمهم أموال الضرائب كي يستفزهم ويثير ضجة ربما تساعدنا على إنجاح الخطة.

ثقيل وهو يتناول إحدى قطع الحلوى والتي أخذها من الرفوف الخارجية للمتجر المقصود, وينادي على صاحب متجر الحلوى بكل تكبر واستعلاء: يا هذا أين مستحقاتنا من الأموال.

يرد صاحب المتجر والذي يدعى سعدون: أي مستحقات وأي أموال تقصد؟ ليس لكم عندي أي أموال, هيا انصرف من هنا يا كتلة اللحم.

ثقيل بعصبية واحمرار وجهه الذي ارتسمت عليه علامات الغضب وعيناه المتسعتان: ماذا؟! كيف تجرؤ أيها العجوز الخرف، فلتكن على ثقة تامة بأنك إذا امتنعت عن الدفع فسنقلب متجرك هذا رأساً على عقب، أفهمت يا هذا.

أثناء محاولة من صاحب متجر الحلوى لاستفزاز العقارب ليصنع بعضا من الفوضى ليمهد ظهور الشرطة المزيفين، يصرخ كل من شُبير و طه و مراد وهم ينادون رجال الشرطة المزيفين. يُصاحبُ ذلك ارتباك وخوفٌ قد دَب في نفوس العقارب، أثناء مناداة أولئك الثلاثة على الشرطة إذ يظهر نجاح وزهير بزي الشرطة المزيف وهما يأمران العقارب بالتوقف وتسليم أنفسهم للعدالة، إذ يهم العقارب بالهرب، كان الحبل موصولاً ما بين فارس و آدم حيث أن جميع العقارب قد اجتاز الحبل باستثناء ثقيل لثقل حركته وسرعته البطيئة ولحظة وصوله للحبل إذ شد الحبل كل من فارس و آدم و أعقب ذلك سقوط ثقيل، وأمسك به الشرطة المزيفون وقيدوه بالحبل.

فارس ويكاد أن ينفجر من شدة الحماس: صدقوني يا جماعة كأني أوقعت بفيل ضخم.... .ويعقبه ضحك كل الأصدقاء.

ثقيل والحبل لُفَّ على كل جسمه والخوف أصبح عائقاً أمام لسانه الذي تلعثم لرؤية تجمع الشرطة المزيفين مع أصدقائهم: من أنتم؟! وماذا تريدون مني؟ اتركوني.

زهير: نعم سنتركك يا ثقيل حالما تنفذ ما نريد منك.

ثقيل بصوت يكسره الخوف مما نزل به: ماذا؟ و ما الذي تريدونه مني؟

ياسين وقد جاء بعربة يجرها حصان, والتي استأجرها لينقل ثقيل فيها إلى خارج المدينة: ستعرف عندما نصل لوجهتنا.

ثقيل وبعينيه المتسعتين وازدياد خوفه أكثر: وأين هي وجهتكم؟

آدم: إلى مطعم فخم أكثر مما تتخيل أيها السمين.....يعقبه بالضحك كل الأصدقاء مجدداً.

ياسين وهو يعصب عيني ثقيل بقطعة قماش سوداء أخرجها من جيبه: لنحمله ونضعه في العربة يا أصدقاء.

فارس: هل تمزح يا ياسين؟! نحتاج إلى رافعة لنرفع بها هذا الفيل الضخم.

ثقيل وهو يصرخ: لا تناديني بالفيل يا هذا, وأنتم ماذا تظنون أنكم فاعلون؟ هل تعلمون من أكون؟

فقال ياسين: نحن نعلم من تكون يا ثقيل, ولكن المشكلة هي أنكم أنت وكل العصابة لا تعلمون من تكونون.

الجميع يتعاون على نقل ثقيل إلى العربة. حيث لاحظ ياسين أن هناك قلادة فضية كادت أن تسقط من جيب ثقيل, فقام ياسين بإعادتها إلى جيب ثقيل الذي تم تقييده بالحبل, وانطلقوا إلى البيوت المهجورة والتي تقع بالقرب من المدينة

حيث قاموا بتقييد ثقيل بسلسلة من إحدى قدميه في إحدى تلك البيوت و أوصلوا السلسلة إلى إحدى النوافذ الداخلية في البيت المهجور.

ياسين: اسمعني يا ثقيل في الحقيقة يعزّ علي تركك هنا، ولكن سنفعل هذا لأمرٍ ضروري جداً, فيه تحقيق العدالة, وجبر خاطر أُم قُمتم بنقش الحزن على قلبها بعد أن ألصقتم تهمة باطلة بابنها سامر.

ثقيل باندهاش: ماذا؟ هل أنتم أصدقاء سامر؟

ياسين وهو ينحني وجعل عينيه في عيني ثقيل: أنت تعرف سامر إذاً, هذا يعني ما عليك الآن هو الاعتراف فقط.

ثقيل والقلق والتوتر والخوف قد اجتمعت بداخله: ولكن ماذا تقصد؟ أرجوكم اخبروني ما سبب احتجازكم لي؟

شُبير: لا تتشاطر يا هذا فلحظة أن سمعت باسم سامر تساءلت إن كنا أصدقاءه أم لا.

مراد: اسمع يا هذا. أنت ورفاقك الحمقى قد أوقعتم بأخي سامر عندما رفض طلبكم بالانضمام إلى عصابتكم البغيضة. وألصقتم به تهمة باطلة بعد أن نصبتم له فخاً عند إحدى متاجر المدينة, هيا اعترف، وإلا.....يقاطعه ثقيل: أنا لا أعلم عن ماذا تتحدث.

مراد وهو يحاول الهجوم على ثقيل و بعصبية محاولاً لكمه: أنت تكذب, أنا اعرف أنكم أنتم من دبر كل هذا... فأمسكه طه مهدئا من روعه: لا بأس يا صديقي .

آدم جنباً إلى ياسين: ياسين كيف سنجبره على الاعتراف؟ يبدوا أنه مصرٌ على النكران.

ياسين وقد أومأ إلى الأصدقاء بالخروج من الغرفة التي احتجزوا فيها ثقيلاً, وبعد أن استقروا خارج الغرفة قال: هذا سهل يا عزيزي آدم، سنتركه يتضور جوعاً. وبذلك سيعترف بسرعة.....يقاطعه فارس و زهير ونجاح بالضحك .

زهير: في الحقيقة أنا قد خطرت لي مثل هذه الفكرة.

ياسين: لكن... . يقاطعه نجاح: لكن ما ذا يا صديقي؟

ياسين: ليس حلاً صائباً, ولكن ليس لنا غير هذا الحل الموجع بالنسبة لثقيل.

مراد: وماذا الآن يا ياسين؟

ينظر ياسين إلى مراد واضعاً راحة يده على كتف مراد: عزيزي مراد لقد حان وقت العشاء ويجب أن تذهب إلى والدتك كي لا تقلق عليك. و اترك هذا الأمر حتى الصباح وسنرى ما العمل.

يعود ياسين إلى الغرفة التي احتجزوا ثقيلاً فيها وهو يخاطب ثقيلاً: اسمعني يا ثقيل, في الحقيقة يعزّ عليَّ تركك هنا بدون طعام، فبهذه الطريقة ستعترف بأنك أنت ورفاقك قد أوقعتكم بسامر الأخ الأكبر لمراد، بتهمة سرقةٍ هو بريء منها.

ثقيل والقلق ما زال مصاحباً له: اسمعني يا هذا أنا لا أعلم عن ماذا تتحدث، لذا فك وثاقي ودعني أذهب من هنا.

ياسين: كما تريد إذاً, ستبقى هنا لنجبرك جوعاً على الاعتراف ... ينظر ياسين إلى رفاقه: هيا يا أصدقاء فلنذهب, لقد تأخرنا.

ثقيل وبصوت مرتفع: إلى أين تذهبون و تتركوني هنا؟ أرجوكم فكوا وثاقي، لا أريد أن أبقى في هذا المكان.

خرج الجميع، وأغلقوا الباب ببقايا حطام ابواب محطمة خلفهم، وركبوا جميعاً في العربة وانطلقوا إلى منازلهم ... .

فارس وهو مبتسم والسعادة تغمره بسبب النجاح الأول للخطة: لا أصدق بان خطتنا قد نجحت حرفياً .....ثم حول نظره لـ(ياسين) بإعجاب حيث قال في قرارة نفسه: يبدو أن هذا الشاب ليس عادياً فروح القيادة قد كانت واضحة وبارزة عليه, بل حتى طريقة حديثه, كانت مختلفة عنا جميعا.

طه: لقد كانت خطة مرسومة بدقة... ثم حول نظره إلى ياسين الذي كان يقود العربة بإعجاب أيضاً... . حيث التفت إليه ياسين وقال: لم تكن لتنجح الخطة لولاكم يا صديقي.

لقد كان شُبير يريد إعادة سؤاله الذي طرحه على ياسين قبل قدوم عصابة العقارب, ذلك السؤال المتعلق بما هو المقابل لأصحاب القلوب ذات التربة الخصبة؟..... ولكن كان يرى بان الوقت ليس مناسباً لذلك. ولكن كان همه أن يعرف ما هو المقابل لذلك, لأنه كان يشعر بان المقابل أمرٌ عظيم وكبيرٌ جداً لذا أجل السؤال إلى وقت آخر.

زهير هو يخلع أزياء الشرطة القديمة مع نجاح: أكثر ما أعجبني في الخطة هو التنكر بزي الشرطة فقد شعرت بأنني امثل القانون حقاً.

نجاح: هذا صحيح, ولا تنسى فقد شعرتُ بأنني صاحب سلطة قوية عندما هرب العقارب لحظة تقدمنا باتجاههم.

يقاطعهما ياسين: يا أصدقاء فليخبرني كل منكم عن طريق منزله كي أوصلكم بالعربة, وغدا سنلتقي في مكاننا المعتاد عند المقهى في تمام الساعة الثامنة صباحاً، لا تنسوا هذا الموعد.....هتف الجميع بالإيجاب.....

(6)

زهرة البنفسج

بعد أن أوصل ياسين كل الأصدقاء إلى منازلهم باستثناء طه لأنهما يقطنان في نفس الحي، وعندما كانا في طريقهما إلى منزليهما ، لاحظ ياسين أن طه شارد الذهن بعض الشيء, أثناء ذلك قال طه وهو يزفر بحزن وبصوت خافت: قد أتأخر عنها.

ياسين بابتسامة: من؟

طه وقد تفاجئ لأن ياسين قد سمع ما قاله لتوه، فرد بتلعثم: ماذا؟... لا, لا شيء يا عزيزي ياسين, لا شيء.

ياسين وهو مازال مبتسماً: حسناً..... ياسين لم يكن يريد إحراج طه بتساؤل كان يدور في ذهنه، لأنه لم يتعرف على طه إلا في هذا اليوم فقط، و التساؤل هو لماذا أرى طه والهم يبدو واضحا على وجهه؟... فقرر أن يسأل شُبَّر لأنه صديق قديم لـ(طه). فقد لاحظ ياسين أن طه ليس فتىً فقيراً كما يبدوا عليه, فالذي يريد أن يمعن النظر بـ(طه) سيجد مظاهر النبل واضحة عليه بدون شك, أي أن طه من الطبقة النبيلة, وتساؤل ياسين هو لماذا أرى طه بهذه الحال؟

فلحظة وصول طه إلى منزله قال وهو في عجلة من أمره: أمي أرجوكِ قومي بإعداد العشاء بسرعة لي ريثما أستحم.

حليمة بعد أن دخل طه إلى الحمام ليستحم: ولكن لمَ هذا التأخر يا بني؟ ولمَ تريد الخروج بسرعة هكذا؟ ماذا هناك يا عزيزي؟ اخبرني أرجوك ... ثم إن العشاء جاهز. وفي الآونة الأخيرة أراك كثير التأخر عن منزلك, ولست صغيرا لأعاقبك على هذا الفعل يا بني, فقد كبرت يا عزيزي طه.

طه من داخل الحمام: صدقيني يا أمي لا شيء هناك, فقط لدي موعد مهم.

حليمة: آمنت بالله, ولكن مع من هذا الموعد؟

استحم طه وبعد تناوله العشاء مع والدته ولبس أجمل ما لديه من الثياب و هم بالخروج بسرعة وهو يقول بقيَّ القليل من الوقت وهو يستنشق عطر زهرة بنفسجية اقتطفها من حديقة والدته والبهجة قد رسمت على وجهه وقد كان متلهفاً بشدة لذلك الموعد. حتى وصل إلى حديقة عامة ورغم أن الوقت متأخر من ذلك الليل لم يكن في الحديقة سوى فتاة يبدو أنها كانت تنتظره, أي انه كان على موعد معها. حيث كانت جالسة على إحدى مقاعد الحديقة.

طه: أظنني قد تأخرت..... أليس كذلك يا ميار؟

ميار: لي رغبة كبيرة بتوبيخك يا عزيزي, ولكن لأجل تلك الزهرة الجميلة سأعفو عنك.

طه بابتسامة: أنا آسف لتأخري يا عزيزتي.

ميار وقد نهضت من المقعد التي كانت جالسة عليه واقتربت منه: إذا تأخرت مرة أخرى فسأشكوك عند القاضي الخاص بنا.

طه بتساؤل: القاضي الخاص بنا؟

ميار: نعم, القاضي الخاص بنا؟

طه وما زالت علامات الاستفهام بادية على وجهه: و من هو القاضي الخاص بنا؟

ميار بعد أن أخذت الزهرة من طه الذي ناولها إياها, وقالت بعد أن استنشقت عطرها: إنه حبنا السري، ذلك الحب الذي ارتوى بماء شوقنا لبعضنا البعض بين الحين والآخر، ذلك الحب الذي يشبه حب روميو وجولييت.....ثم استطردت تقول: أُراهن أنها من حديقة عمتي فهي تحب هذه النوع من الزهور.

طه : نعم هذا صحيح.

ميار وهي تشم الزهرة البنفسجية مرة أخرى بعد أن اغمضت عينيها وأخذت شهيقاً عميقاً مصحوبا بعطر زهرة البنفسج قالت: ما أجمل عطرها.....تجلس ميار بعدما جلس طه واضعة رأسها على كتفه..

ميار: هل تعلم يا عزيزي طه؟.....صمتت لحظة.....ثم تابعت لتقول: أنا دائما أفكر في مستقبلنا. وكثيرا ما أقول كيف سينتهي بنا المطاف؟ كيف وأين؟..... يقاطعها طه: أرجوكِ لا تكملي.....قال هذا وقبضتا يداه تشدان على بعضهما وكأن الحسرة من على وجهه تقول هذه أنا.

ميار تعتدل في جلستها وبصوت ينم عن حزن شديد: لمَ لا يا طه لم لا, فأنا خائفة من أبي أن يسلبك إياي كما سلبك ارث والدك.

طه: ميار أرجوكِ..... تقاطعه ميار بعينين دامعتين: أنا أشعر بالخجل منك ومن والدتك لأنني أعيش في قصر بل في ثروة هي من حقك أنت ووالدتك تلك الثروة التي استولى عليها أبي عندما توفي والدك..... طه يقاطعها وبرأسٍ محني للأرض: ولكن ما ذنبك أنتِ؟ لا ذنب لكِ أنتِ ولا والدتك فأنتما مجبرتان على العيش في كنف عمي ... .ثم اخذ طه يربت على ظهرها بعد أن ضمها إلى صدره مخففاً عنها حزنها الذي بسببه راحت دموعها تنزل واحدة تلو الأخرى على خديها. طه محاولاً التخفيف عنها قص عليها ما جرى له مع أصدقائه في هذا اليوم، ويحكي لها المواقف الطريفة و المضحكة التي جرت معهم أثناء تنفيذ خطة الإمساك بثقيل. إلى أن شارف وقت منتصف الليل ثم ودعا بعضهما بعد أن أوصلها إلى منزلها.....أثناء سير طه عائداً إلى منزله كان يشعر أن بصيص الأمل ذاك أصبح شعلة أمل كبيرة. ذلك الأمل الذي كان يخبره بأن ارثه وارث والدته ذلك الإرث الذي تركه لهما والد طه والذي سرقه عمه حاتم منه

سيستعيده ذات يوم, نعم كان يشعر بنفحات أو فيض من التفاؤل كلما ذكر ياسين وبقية أصدقائه وكيف أوقعوا بـ(ثقيل), يخفق قلبه خفقات فرح رغم الحال التي يعيشها. فليس سهلاً على الإنسان أن ينتقل من عزٍ إلى ذُل, حيث قال: ليس من السهل عليَّ أن اترك الإرث الذي تركه لي والدي بيد من سرقه مني وهو يغدو ويروح أمام ناظري.....نعم رغم كل ذلك كان طه يستبشر خيراً بـ(ياسين) وبقية أصدقائه إذ أنه كان واثقاً بأنه ذات يوم سيستعيد حقه بمساعدتهم.....

(7)

الخلود

في صباح اليوم التالي. كان كل الأصدقاء بانتظار ياسين حتى وصل إليهم. ياسين وهو يحمل معه كيساً جهل بعض الأصدقاء ما بداخله: السلام عليكم, كيف حال الجميع؟

رد الجميع: وعليكم السلام.

آدم: حسناً يا ياسين أظنك قد أحضرت الطعام لـ(ثقيل), أليس هذا صحيح يا عزيزي؟

ياسين: قد يحتاجه ثقيل يا آدم, بعد أن يعترف طبعا, وإلا فأن الجوع سيكون جليسه اليوم أيضاً, غير أن هذا سيحزنني حقاً.

زهير بابتسامة مازحاً: ياسين هل تعرف أي منا وصل إلى هنا أولاً؟

ياسين: من؟

فارس وبحماس: إنه مراد بالطبع.....والجميع يعقب كلام فارس بالضحك.

ياسين: مراد عزيزي لتكن على ثقة بأن أخاك سامر سيخرج عاجلا أم آجلا....ثم يحول نظره إلى شُبَّر: كيف حالك يا عزيزي شُبَّر؟

شُبَّر بابتسام: بخير يا ياسين، شكرا لك.....ثم قال في قرارة نفسه: من أنت يا هذا؟ من تكون لتدخل قلبي من دون سابق إنذار؟

نعيم: إن طه لم يحضر حتى الآن يا ياسين.

ياسين: لا أعتقد أن طه بإمكانه القدوم هذا اليوم, لأنني قد شاهدته وهو ذاهب إلى عمله في الصباح الباكر.

مراد: ياسين هل سيعترف ثقيل اليوم؟

ياسين واضعا باطن كف يده على كتف مراد: أتمنى ذلك يا عزيزي....ثم يستطرد ويقول: والآن يا شباب فلنذهب إلى ثقيل.

انطلق الجميع إلى ذلك البيت المهجور فطلب ياسين من شُبير بان يسمح له بدفع عربة شُبَّر، ثم أكملوا طريقهم نحو البيت المهجور ذلك البيت الذي احتجزوا فيه ثقيلاً. وأثناء سيرهم, كانت هناك نظرات تنطلق من شُبير فيها نوع من الخجل تستهدف ياسين, فيما شعر فيها الأخير والتفت إلى شُبير قائلاً: عزيزي شُبير هل هناك أمرٌ ما؟ تكلم.

شُبير وبتلعثم: ياسين! لا يا صديقي, لا شيء هناك.....في الحقيقة كنت أريد أن أسالك عن الحديث الذي دار بيننا بالأمس قبل أن نمسك بثقيل.

يقاطعه زهير مستدركاً: هذا صحيح يا ياسين, فقد كنت تريد أن تكمل حديثك عن أصحاب القلوب ذات التربة الخصبة.

ياسين: نعم يا أصدقاء لقد تذكرت ذلك, ولكن ما هو السؤال الذي تريد طرحه يا عزيزي شُبير؟

شُبير: كنت تريد أن تتحدث عن المقابل الذي سيحصل عليه ذلك الفرد الذي يضحي بالوقت والمال وكل شيء في سبيل خدمة مجتمعه.

ياسين: نعم فكما قلت لكم فإن المقابل لهو عظيم حقاً, إن المقابل يا أصدقائي هو الخلود.

بعض من الأصدقاء معاً: الخلود؟!

ياسين: نعم الخلود, فإن من يفني حياته في سبيل خدمة المجتمع فإنه سيحصل على الخلود. ذلك الخلود الذي يجعل ذِكر صاحبه حياً لا فناء له وذلك توفيق من الله سبحانه وتعالى.

ولما وصلوا. وجدوا ثقيلاً يغط في نوم عميق جداً....فارس بصوت مرتفع: استيقظ يا كتلة اللحم.

ياسين: لا يا فارس ليس من الحكمة إطلاق الألقاب السيئة على أي كان.

يستيقظ ثقيل وهو يمسح النعاس من عينيه, قال بعد أن تثاءب: صدقوني أنني أتضور جوعاً. فلا يوجد شيء أتناوله غير الماء الذي وضعتموه بجانبي.

ياسين: صدقني يا عزيزي ثقيل يعز عليَّ ذلك، لكن هذا من أجل أن نجبرك على أن تعترف بأنكم أنتم يا عصابة العقارب من دبر مكيدة لتوقعوا سامراً

بها..... قال ذلك بعد أن قام بفتح كيس الطعام كي تتسرب منه رائحة الطعام, ليشمها ثقيل لعله يغير رأيه ويعترف بأنه هو وأفراد عصابته قد قاموا بالإيقاع بـ(سامر).

آدم: اسمع يا ثقيل, إن ياسين قد احضر لك طعاماً لتتناوله, ولكن لا نستطيع إعطاءك إياه إلا إذا اعترفت.

ثقيل والتوتر واضحاً على وجهه: أنا أخبرتكم بأني لا أعلم عن ماذا تتكلمون.

نعيم: لا يا ثقيل نحن على ثقة بأنكم أنتم من أوقع بسامر.

ياسين: ذهبتُ في ليلة البارحة لزيارة سامر في السجن في مخفر الشرطة. وقال لي بأن فرصة عمل قد تقدمت له في إحدى متاجر هذه المدينة, بعد أن أخبره بذلك شخص غريب قد طرق باب منزله ليلاً.....يقاطعه مراد مؤكداً كلام ياسين: هذا صحيح يا ياسين فقد طرق باب منزلنا ليلاً شخص لا نعرفه, اخبر أخي سامر بأن يحضر إلى ذلك المتجر الذي نصبت فيه العقارب فخاً له.

يكمل ياسين قائلاً: وعندما وصل سامر إلى ذلك المتجر كان لدى صاحب المجتر خبر مزيف بأن أحد أفراد عصابة العقارب سيحضر إليه ليجبره على دفع الضرائب, فما أن وصل المسكين سامر حتى أحاط به مجموعة من العقارب على أنهم أشخاص ليسوا من العصابة, وأنهم جاءوا ليمسكوا بـ(سامر), ثم جرَّ ثقيل قلادة من عنق سامر كان يرتديها, وما أن وصل

رجال الشرطة إلى مكان الحدث حتى القوا القبض على سامر ظلماً, لقد أكد لي بأنكم قد هددتموه بتدبير مكيدة له في حال رفض الانضمام إلى عصابتكم. لقد تأكدت من ذلك, ولديَّ دليل على هذا الكلام يا ثقيل.

ثقيل بارتباك: دليل؟!

ياسين: نعم دليل.

ثقيل: وما هو دليلك؟

ياسين وهو يقترب من ثقيل ويفتش بإحدى بجيوبه ويخرج منها قلادة بلون فضي على شكل سلسلة مغلقة ويتدلى منها قرص فضي أيضا مزخرف بلون أرجواني.. ... .هنا يهتف مراد باندهاش: هذه قلادة أخي!

ثقيل بإنكار يصاحبه خوف واضح: لا, بل هي قلادتي أنا.

ياسين: حسناً يا ثقيل، هل تعلم بأن قرص هذه القلادة قابل للفتح؟

ثقيل وعيناه متسعتان فقد زعم أن هذه القلادة ملكه الخاص، وعندما أخبره ياسين بأن قرص هذه القلادة قابل للفتح أيقن تماماً أن كل شيء أصبح واضحاً الآن، فهو ورفاقه من عصابة العقارب الذين أوقعوا بسامر وأن هذه القلادة هي ملك لسامر أيضا.

ياسين يفتح قرص القلادة بعد محاولة منه لم تدم إلا بضع ثواني، لأن سامر قد علّمه كيفية فتحها, وبعد أن فُتحت القلادة تفاجأ ثقيل واندهش لذلك. حيث

كان باطن القلادة يحتوي على صورة جهلها ثقيل..... فقال ياسين بعد أن رفع القلادة بوجه ثقيل: هل تعرف من هذا الذي في الصورة يا ثقيل.....يقاطعه مراد بصوت حزين: إنها صورة أبي الذي توفي منذ سنوات.

نجاح وقد نظر إلى ثقيل بعينين غاضبتين تنذران ثقيلاً بالبطش به في حال أنكر قضية سامر مجدداً: أيها الأحمق هيا اعترف؟

شُبير: لقد أصبح كل شيء واضحاً يا ثقيل.

نعيم: ألم أخبرك بأننا على ثقة بأنكم أنتم من أوقع بسامر.

مراد محاولاً الهجوم على ثقيل لضربه, وحال إمساك كل من آدم وزهير له دون ذلك وهو يستشيط غضباً قائلاً: تُوقع بأخي وتسرق القلادة منه وكل هذا لا تريد الاعتراف أيها الحقير سأريك، اتركوني ألقنه درساً لن ينساه اتركوني.

فارس مهداً من غضب مراد: هوّن عليك يا صديقي أرجوك.

ياسين وقد ضم مراد الذي يبكي إلى صدره ويلتفت إلى ثقيل: حسناً يا ثقيل كما تريد إذاً، إذا كنت لا تريد الاعتراف فليس لدينا مانع بتركك هنا ليوم آخر, ولتكن على ثقةً بأن الجوع سيكون جليسك أيضا ولتكن على يقين بأن

ذلك سيستمر لأيام عدة .....ثم استطرد قائلا ليُسمع ثقيلاً: هيا يا أصدقاء لنذهب وسنعود بعد يومين إلى هنا وربما أكثر.

فارس: ستكون حمية غذائية جيدة لك يا ثقيل.

يناديهم ثقيل وهو مطأطئ رأسه إلى الأرض: توقفوا، حسناً سأعترف، أنا من دبر فخاً مدروساً بشكل جيد، حتى أوقعنا فيه سامراً ... ..يقاطعه ياسين وهو يقدم له ورقة وقلم: لا, بل ستكتب الاعتراف على هذه الورقة يا ثقيل.

طلب ياسين من الجميع الذهاب إلى منازلهم , وطلب من شُبير أن يتحدث مع الشرطي أمين على انفراد ويخبره بقضية ثقيل بعد أن أوصى شُبَّر الشرطي أمين في احتمالية أن يأتيه شُبير لأمر ضروري وطلب من الشرطي أمين الاستماع جيدا لأخيه شُبير إذ ما أتاه. ولم يتبقَ بجانب ثقيل أحد سوى ياسين وشُبَّر. خرج ياسين وشُبَّر من عند ثقيل بعد أن أعطى ياسين الطعام الذي أحظره معه ليتناوله ثقيل بعد أن كان الجوع جليسه من ليلة البارحة, حيث أكله الأخير بكل شراهة تنم عن الجوع الشديد لصاحبها. جلس كل من ياسين وشُبَّر يتحدثان خارج المنزل المهجور الذي احتجزوا فيه ثقيلاً. حيث جلس ياسين على بقايا سور محطم بسبب ما مرت عليه من سنين غابرة, أما شُبَّر فقد لزم كرسيه المتحرك مقابلاً لـ(ياسين).

ياسين: شُبَّر.

شُبَّر و كان يمعن النظر بعيني ياسين: نعم يا ياسين.

ياسين: أُلاحظ أن طه يشغله أمرٌ ما, وهو حزين لأجل ذلك الأمر الذي اجهله أنا, فهل تعرف ما الذي يشغله؟

شُبَّر يزفر بحزن: نعم يا عزيزي ياسين أعرف سبب حزن طه.

ياسين: هل يمكنك أن تحدثني بذلك الأمر؟ لعلنا نستطيع مساعدته.

شُبَّر: بالطبع سأخبرك. لكن هل تعلم أن طه ووالدته يملكان مزارع وشركات كبيرة وثروة طائلة؟

ياسين: ماذا؟! هل حقاً يملكان كل هذا؟ ولكن طه ووالدته مقتصدا الحال في معاشهما. حيث أن طه يعمل في إحدى معامل الإنشاءات وبالكاد يستطيع أن يحصل على قوت يومه.

شُبَّر: نعم صحيح. ولكن لدى طه عم حاسد وحاقد ويدعى حاتماً قام بسرقة كل تلك الأملاك والأموال وحولها لنفسه ولم يترك لطه ووالدته أي شيء منها رغم أن الثروة هي ملكهما وحدهما, لقد عاشا غريبين ووحيدين بعد وفاة والد طه.

ياسين الذي تألم لأجل طه: مسكين طه، مسكين حقاً ...وأين عم طه الآن؟ أين يسكن؟

شُبَّر: انه يعيش في هذه المدينة ولديه قصر له من الفخامة ما يعجب الناظر حتى الانبهار والاندهاش لحجمه وطرازه الغريب والعجيب..... ولكن....

ياسين: ولكن ماذا يا عزيزي شُبَّر؟ تكلم.

شُبَّر: لدى حاتم عم طه فتاة اسمها ميار بمثل سن طه يحبان بعضهما فقد عاشا معاً منذ طفولتهما حتى وفاة والد طه ثم جاء الفِراق وافترقا عن بعضهما, أي بعد أن اخذ حاتم كل ثروة طه وانتقل ليعيش في ذلك القصر ومنذُ ذلك الحين لا يستطيع طه رؤية ميار إلا سراً, فلا يستطيعان الافتراق عن بعضهما فقد اعتادا على بعضهما كثيراً.

ياسين: ما حدث لـ(طه) صعب جداً, ولا بد أن نساعده على أن يستعيد إرث والده.

شُبَّر: ولكن, لا اعتقد إننا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال طه يا ياسين.

ياسين: و لكن لماذا؟

شُبَّر: طه ووالدته اشتكيا عند القضاء. حيث وجدا أن جميع الثروة التي تركها السيد عابد والد طه مسجلة باسم حاتم عم طه نفسه. وبذلك فقد خسر طه ووالدته تلك القضية.

ياسين: ولكن كيف سُجلت تلك الثروة باسم حاتم؟ اعني لابد أن السيد عابد قد سجلها باسم طه ووالدته.

شُبَّر: لقد أخبرني طه بأن حاتماً قد قام بسرقة الثروة منهما هو ووالدته, وذلك بأن حاتم قد لعب لعبته القذرة من خلال تحويل كل الثروة التي تركها أخوه

عابد لولده طه وزوجته حليمة, باسمه وذلك من خلال تزوير أوراق خاصة بكل الأملاك التي هي ملك لـ(طه) ووالدته السيدة حليمة.

ياسين: نعم, هذا ما أردته يا عزيزي لا بد لـ(حاتم) أن يزور الأوراق الخاصة بثروة السيد عابد رحمه الله, كي يستطيع الاستيلاء عليها.

شُبير: ولكن هل للقضاء عدم المقدرة على أن يميز بين الأوراق المزورة و غير المزورة؟

ياسين وقد وامسك رأسه بكلتا يديه بعد أن أحنى رأسه إلى الأرض: هذا الأمر الذي حيرني الآن يا أخي.

شُبَّر متفاجئ بسبب هذه الكلمة: أخي!

ياسين: نعم, وهل هناك مشكلة.

شُبَّر بابتسامة مصطنعة: بالطبع لا توجد مشكلة.

لقد شعر شُبَّر بأن كلمة (أخي) التي انطلقت من لسان ياسين كأنها كانت بلسما لجراحه التي أصابته منذُ طفولته بسبب ما ألمَّ به من مرض جعله طريح الفراش لأيام عدة والتي كانت سبب عدم مقدرته على السير على قدميه منذُ أن كان طفلاً ابن خمس سنين. فعندما سمع كلمة (أخي) من ياسين شعر بان قلبه ناداه قائلاً: هذا أخوك حقاً يا شُبَّر.....ولمَ ذلك الشعور؟ هل لأن كلمة أخي لم يناديه أحد بها غير شُبير؟ أم أن هناك أمرٌ غيبي لا أحد يعلمه إلا

(الله), لقد شعر شُبَّر ولسبب حيره شديد الحيرة, بأن له رغبة في أن يعانق ياسين ولكن حال الخجل دون ذلك. ولكن لماذا؟ لماذا ياسين قد دخل قلب شُبَّر بهذه السرعة؟! فهو لم يتعرف على ياسين إلا منذُ يومين فقط فعلامَ قلب شُبَّر يخفق لـ(ياسين) هكذا؟!

شُبَّر: ياسين.

ياسين: نعم يا عزيزي شُبَّر, ماذا هناك؟

شُبَّر: مع من تعيش في منزلك؟ أعني هل لديك إخوة اكبر منك سناً أو أصغر منك؟

ياسين ويداه بعضهما تقبضان على بعض وقد زفر بحزن وأجاب: لا يا عزيزي شُبَّر, ليس لديَّ أي إخوة. و أنا أعيش مع والدتي فقط أما أبي فقد توفي منذُ أن كنت طفلاً صغيراً وابن سنة واحدة على الأكثر.

شُبَّر بتأسف شديداً: ماذا!..... أنا آسف حقاً, أردت التعرف عليك فقط. لم اقصد أن أجدد أحزانك بسؤاليَّ هذا.

ياسين بابتسامة مصطنعة وقد ازداد بريق عينيه بسبب عَبرة قد استطاع التغلب عليها, عندما ذكر حادثة والده: لا, لا عليك يا عزيزي. ثم يجب أن نتعرف على بعضنا أكثر..... ثم استطرد ياسين قائلاً: إن أبي قد توفي عندما كنت طفلا صغيراً بحادث سير.

شُبَّر مطأطأ الرأس حزناً لأجل قصة ياسين: أنا آسف لأجلك حقاً.

ياسين: شكرا لك يا عزيزي شُبَّر.....و الآن جاء دوري في التعرف عليك يا صديقي. حدثني عن عائلتك.

شُبَّر: عائلتي تتكون من أربعة أشخاص , والديَّ و أنا وأخي شُبير.

ياسين: فليحفظكم الله.

شُبَّر وبزفرةٍ بان الحزن من خلالها: شكرا لك يا ياسين.....لكن أتعلم؟..... في الحقيقية لديَّ أخ أكبر مني بسنة واحدة, ويدعى إليا.

ياسين: حقاً ؟.... لم أسمعك تعده مع عائلتك, ما السبب؟

شُبَّر ومن على كرسيه المتحرك مطأطأ رأسه وبدا الحزن واضحاً عليه: لقد توفي بحادث سير عندما كان طفلاً وابن سنة واحدة. تعرض للحادث مع والديَّ.....أبي وأمي خرجا من الحادث بإصابات شفيا منها لاحقاً, فيما فقد أخي إليا حياته.....قال شُبَّر ذلك الكلام وبالكاد استطاع أن يسيطر على مشاعره, كي لا يرى ياسين دموعه التي كادت أن تسيل على خديه.

ياسين : متأسف لأجلكم يا عزيزي .

شُبَّر: شكرا لك. ولكن هل تعلم إن أخي إليا ليس له قبر؟!

ياسين باندهاش: ولكن لماذا؟

شُبَّر: عندما حدث ذلك الحادث اللعين لعائلتي, وقعت العربة التي كان يستقلها أبي وأمي وأخي عندما كان الأخير طفلا رضيعاً. سقط كل من أبي وأمي على حافة النهر مغمىً عليهما وعندما أفاقا علما أن أخي إليا قد...

ياسين: قد ماذا يا عزيزي؟

شُبَّر: قد سقط في النهر الذي كانا يسيران على إحدى ضفتيه قبل أن يتعرضا للحادث في تلك العربة.

ياسين: كل شخص في هذه الدنيا ولديه هم يشغله. وهموم الإنسان هذه كأنها قد لزمت الدور على الإنسان نفسه, فما أن يتخلص من هم حتى يحين دور الهم الآخر وهكذا. مسكين ابن آدم فقد ظن أن في هذه الدنيا شيء اسمه الراحة, والله سبحانه وتعالى لم يخلق الراحة فيها أبداً, وإنما قد خلقها في جنان الخلد لديه.

جلس ياسين وشبر وكل منهما يحكي للآخر مواقفه وطرائفه التي صادفته في الحياة, ليطردا غبار الحزن عنهما. حتى وصل الشرطي أمين بسيارة الشرطة وقد جاء معه شُبير الذي دلهم على مكان احتجاز ثقيل.

أمين وهو يخرج من سيارة الشرطة: السلام عليكم.

ياسين وشُبَّر: وعليكم السلام.

شُبَّر: كيف حالك يا أمين؟

أمين: أهلا بك يا شُبَّر أنت وصديقك معاً.

شُبَّر: هذا صديقي ياسين انتقل لتوه إلى مدينتنا.

أمين: أهلا بك يا ياسين.

ياسين: أهلا بك سيدي.

أمين: هل ما قاله شُبير صحيح؟

شُبَّر: نعم يا أمين، ولم أستطع أن أخبر شخصاً آخر غيرك لأنك متفهم معي، و لأنك شخص مقرب إلينا أيضاً.

أمين وهو مبتسم: حسناً هل يشرح لي أحدكم القضية من جديد كي أفهم أكثر؟

ياسين: خذ هذه الورقة وسيتضح كل شيء لك يا سيدي ...

يأخذ أمين الورقة، تلك الورقة التي سجل ثقيل اعترافه فيها، وبدأ أمين يقرأ فيها ما يلي:

" أنا شامل وينادونني ثقيلاً أحد أفراد عصابة العقارب. نحن قد طلبنا من سامر أن ينضم إلى عصابتنا. وهددته في حالة رفض الانضمام إلى عصابتنا فإننا سنلصق به تهمة يُزج من خلالها السجن. علماً أن التهمة كانت تهمة جمع الضرائب غير القانونية من أحد متاجر المدينة وهو متجر صنع الأحذية الذي يقع في حي السلام وهو بريء منها.

التوقيع شامل "

بمساعدة شرطي جاء مع أمين اخذوا ثقيلاً إلى مخفر الشرطة, حيث قاموا بعد التحقيق مع ثقيل بإطلاق سراح سامر وتبرئته من التهمة كلياً, تلك التهمة التي اتهم فيها سابقا والتي كانت سبب دخوله السجن.....

(8)

معشوقي.....و قد غفل عن عشقي له

سليم واضعاً قدماً على الأخرى وهو يحتسي شراباً قدمته له الخادمة صفية: أُأكد لك يا عزيزي حاتم بأن هذه صفقةً ستدر عليك أموالاً تقدر بثلاثة أضعاف قيمتها, لذا أقدم لك التهاني الحارة بهذه المناسبة.

حاتم وهو الآخر واضعاً قدما على الأخرى ويقهقه قهقهة خفيفة معبر لسليم عن ذكائه بإدارة هذه الصفقة بعد أن أخذ رشفة من الشراب الذي قدمته له الخادمة أيضاً حيث قال بغرور: بل سأربح خمسة أضعاف قيمتها يا سيد سليم.

سليم وقد يعتدل بجلسته متعجباً: ماذا؟! و لكن كيف ذلك يا سيد حاتم؟

حاتم وهو يأخذ رشفة أخرى من شرابه: لقد قمت بعرض تلك الأراضي التي قمت بشرائها, في مزايدة, حتى وصلت قيمتها إلى خمسة أضعاف قيمتها عندما اشتريتها.

سليم وقد تظاهر بأنه ينفجر انبهاراً من الخارج ويكاد أن ينفجر غيظاً من الداخل: هذا عظيم يا سيد حاتم هذا عظيم. ولكن كيف خطرت لك هذه الفكرة؟

حاتم وهو يأخذ رشفة أخرى من ذلك الشراب وقال بتكبُرٍ واضح: وهل كنت تظن يا سيد سليم بأني سأقبل بربح تافه كالذي تم عرضه عليَّ من قِبل أصحاب تلك الأراضي؟ هذا هراء يا صاحبي هذا هراء. لم تأتني هذه الثروة عبثاً بل أتتني عن دراية وحكمة في الإدارة.

سليم بقهقهة خفيفة يعقبها بأخذ رشفة من ذلك الشراب: لا , بل كنتُ على علمٍ بأن هذا الأمر لن يفوتك حتى تضع عليه لمسة من لمساتك النيرة,.....ثم استطرد سليم قائلاً في قرارة نفسه: حاتم, أيها الحقير المتكبر, أيها الطماع الجشع, أيها المغرور السفيه. وهل تستعرض عليَّ خبرتك أيها الوغد. لم تكن سوى عامل تعمل عند أخيك الذي سرقت ثروته من وَلده المسكين طه, لقد حظيتَ بثروة لم تكن لتحلم بها, واليوم تتمتع بثروة هي ملك لابن أخيك و ها أنت تستعرض بإدارتك لصفقتك المربحة أمامي بكل تكبر وغرور....ثم استوى قائماً وقال لحاتم: حسناً يا عزيزي حاتم, لقد حان موعد ذهابي, وسأزورك في الأسبوع القادم في نفس اليوم و يسعدني أن تخبر السيدة سمار و الآنسة ميار بالأمر الذي سيقرب عائلتينا من بعضهما.

حاتم وقد نهض بابتسامة مصطنعة مصافحاً يد سليم الذي قدم الأخير يده للمصافحة: يسعدنا ذلك يا سيد سليم.

سليم وهو يهم بالذهاب: وبلغ تحياتي الحارة لعائلتك.

حاتم: سأرافقك للخارج يا عزيزي سليم.

سار الاثنان باتجاه بوابة القصر عبر طريق يقع في وسط حديقة قصر السيد حاتم. لقد كان ذلك الطريق الذي يوصل ما بين الباب الداخلي للقصر والباب الخارجي ذا مسافة طويلة بعض الشيء بسبب مساحة حديقة القصر الضخمة, حيث كان الطريق يمر بين نافورتين متماثلتين. تجسدان نافورة (شمشون) والتي تقع في بطرسبرغ في روسيا, وهي من إحدى أروع النافورات في روسيا والتي بنيت عام (1710 م) حيث تصور هذه النافورة لحظات دموع شمشون بين فكي الأسد وهي رمز لانتصار روسيا على السويد في الحرب الشمالية العظمى. فضلاً عن التماثيل التي كانت تزين تلك الحديقة, وكان كل تمثالين متشابهين يقعان على جانبي ذلك الطريق وكان هناك نهر صغيرة مسافة ضفتيه, شق أرض الحديقة والذي يحتوي على أصناف متعددة من أسماك الزينة فضلاً عن أنواع مختلفة من طيور الزينة التي كانت تزين سماء القصر وحديقته. حيث كان جانبا القصر متناظرين وحديقته.

سليم من داخل سيارته السوداء الفخمة التي ركبها ويضع قبعته المستديرة السوداء على رأسه ويرفع يده مودعا حاتماً. فيما رجع الأخير إلى داخل قصره, وبعد أن صعد السلم الذي يؤدي إلى الطابق العلوي من القصر متجهاً إلى نافذة مبالغ في حجمها كثيراً وهو ينظر إلى حديقة القصر حيث العمال ما بين الغادي والرائح, وينظر إلى نافورتي شمشون العظيمتين, أغمض عينيه ثم شهق شهيقاً عميقاً, ويطلقه بزفير لا يُبذلُ جهدٌ لتحليلها, فالحق كانت زفرة

حزن تنم عن شخص سافر إلى ماضيه, وهو ضاغط بقبضة يده على عصاه السوداء ذي الرأس الكروي الذهبي قائلاً في قرارة نفسه: أخي عابد.....أعلم بأنك غاضب مني وأنت راقد في قبرك الآن, إذ أنني قمتُ بأخذ كل ثروتك التي هي ملك لعائلتك, ولم أترك لطه وزوجتك حليمة أي شيء منها, بل ولم أُعلهما على العيش حتى, لأن نفسي وكبريائي وطمعي وجشعي قد حالوا دون ذلك. أما السبب الرئيسي في عدم إعطائي لولدك طه أي جزء من ثروتك التي أخذتها فهذا لأني أعلم بأنه سيكّون من تلك الثروة الصغيرة ثروة كبيرة مما يسمح له بالانتقام مني وأخذ كل ثروتي هذه وهذا ما أرفضه أنا بشدة.....يصمت قليلاً ثم يكمل: هل تعلم يا أخي عابد بأن ولدك طه قد اشتد عوده وكلما يكبر يزداد شبها بك, وأزداد أنا خوفاً ورعباً منه. فأنا أخشى أن يصنع من حياته دراما واقعية يسميها مسلسل الانتقام .... يرفع حاتم نظره إلى السماء ثم يغمض عينيه مناديا: صفية أين أنتِ.

تأتي صفية كبيرة الخدم على عجالة من أمرها, لتقف خلف السيد حاتم محنية الرأس: نعم يا سيدي.

حاتم :أخبري سيدتك أن تحظر إلى صالة الاستقبال.

صفية بإيماءة برأسها معبرة عن احترامها للسيد حاتم الذي مازال ينظر من النافذة العملاقة: أمرك سيدي.

ينزل حاتم إلى صالة الاستقبال ويجلس منتظراً زوجته سمار. وأثناء نزول الأخيرة من السلم قائلةً: لعله أمرٌ ضروري يا سيد حاتم.

حاتم: لنفترض أنه ليس ضرورياً لدرجة ما يا زوجتي العزيزة, ألن تأتي؟

سمار بعد أن استقرت جالسةً على أريكة تقابل الأريكة التي جلس عليها السيد حاتم: بلى, وإنما بدر سؤالي لوجهك الذي تكاد الحَيرة أن تنطق بدلاً من لسانك.

يبتسم حاتم وسند ظهرهُ على الأريكة: عزيزتي سمار. إن الإنسان لا يساوي شيئاً في هذه الدنيا الفانية عندما لا يساوي جَيبهُ شيئاً. فأصبح الإنسان مُحترماً مُقدراً عندما يكون غنياً مترفاً. محتقراً منبوذاً عندما يكون فقيراً شقياً في حياته. في هذه الدنيا عندما يدخل الغني إلى محفل ما, يقف له كل الناس احتراماً وتبجيلا ويَخلون له العديد من المقاعد ويتسابقون إليه ليجلسوه في أماكنهم. وإذا دخل الفقير فسيرحمه الغني إذا كلف نفسه عناء رد التحية. وقد يضطر للجلوس على الأرض أو البقاء واقفاً إذا لم يجد لنفسه مكاناً للجلوس. فالفطن الذكي سيعرف أن ذلك التصرف الذي بدر من الناس تجاه الغني والفقير ليس إلا نفاقاً بحد ذاته. والغبي الأحمق والموهوب بغبائه وحماقته إذا ظن أن الناس أحبته لذاته لا لِما في جيبه من أموال زائلة وقد صدق قول الشاعر فيهم عندما قال:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مالُ

ومن لا عنده مالُ فعنه الناس قد مالوا

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهبُ

ومن لا عنده ذهبُ فعنه الناس قد ذهبوا

رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة

ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة

مسكين ابن آدم, فالذي وقّر الغني لغناه كان ممن ذُكرَ اسمه في سجل المنافقين. والذي ظن أن الناس قد أحبته واحترمته وقدرته وقدمته على أنفسهم تقديراً لذاته فهذا هو الغباء بعينه. وهذا الأمر مرتبط بزوجة الغني والفقير كذلك يا عزيزتي سمار.

سمار بعد أن كانت شاردةً بوجه حاتم باستغراب: وكأنك تريد أن تتخذ قراراً ما يا عزيزي حاتم فقد أقلقتني بمقدمتك هذه. قل, ماذا هناك؟

حاتم: إنما هو خيرٌ لعائلتنا يا سمار. فأنتِ ما كنتِ لتحظين بهذا القدر من الاحترام من قِبل زوجات الأغنياء الذين نعرفهم, لو لم تملكي مثل هذه الثروة التي هي ارثٌ لك من والدك.....وكذلك الأمر ينطبق على ميار.

سمار تطبق على كفيها وتضغط على بعضهما بقوة: وهل تفكر بأن تزوج ابنتنا يا حاتم.

حاتم: أحسنتِ يا عزيزتي سمار. فقد تقدم الثري سليم ليطلب يد ابنتنا ميار لولده سلام.

صمتت سمار للحظات فقد كان هذا الخبر الذي أفصح عنه حاتم لتوه بمثابة ضربة موجعة لسمار بل وكأن هذا الخبر نزل كالصاعقة على مسامعها, حتى كاد جسدها أن يُشل, فهي تعلم بأن ميار لم ولن تتزوج إلا من ابن عمها طه ناهيك عن أنها كانت على علم بأن ميار دائما ما تلتقي بابن عمها طه سراً. فأفصحت قائلة: حسناً يا عزيزي حاتم دعنا لا نخبر ميار بهذا الأمر الآن. فدعنا لا نتعجل بهذا القرار الذي من شأنه أن يحدد مصير سعادة حياة ابنتنا.

دارت الأرض كلها برأس سمار التي أرادت أن تستوي واقفة. حتى ما أن استوت واقفةً وإذا بها تسقط على الأرض فأسرع حاتم إليها جاهلاً سبب إغمائها منادياً بأعلى صوته: صفية أين أنتِ.

جاءت صفية مسرعة: ماذا هناك يا سيدي.... حيث وجدت حاتم بقرب سمار وهو يعينها على الوقوف مجدداً.

صفية وهي الأخرى تمسك سمار بيدٍ ويدها الأخرى تمسك بكتفها.

حاتم: سمار ما الذي جرى لكِ.

سمار: لا, لا شيء هناك, مجرد دوار خفيف. سأذهب لأستلقي على السرير بغرفتي كي ارتاح قليلاً.

حاتم: حسناً ..... صفية خذيها إلى غرفتها, ولا تتركيها وحدها أبداً.

صفية: كما تريد يا سيدي.

تذهب سمار لغرفتها في الطابق العلوي وتسندها صفية. جهل حاتم سبب تدهور حالة سمار, فهو قد جهل أن ذلك الخبر وهو خبر تقدم سليم ليطلب يد ميار لولده سلام كان خبراً موجعاً لها. فهي تعلم بأن ميار تفضل الموت على الزواج من غير ابن عمها طه من جهة, ومن جهةً أخرى كانت تعلم بأن هذا الأمر الذي قرره السيد حاتم لن يتراجع عنه أبداً. فحاتم الذي يقدس الأموال ويقدس الثراء لن يفوّت فرصة كهذه , لأنه ثري ويريد لابنته أن تتزوج من ثري.

سمار وهي تتحدث في قرارة نفسها وتضغط بقوة على يدي خادمتها صفية من دون أن تنتبه لذلك: حاتم, حاتم, إلى أين يا حاتم. أما يكفيك انك قد سلبت طه كل شيء يملكه, وتريد أن تسلبه ميار أيضاً, يا ناكر جميل أخيك عابد. أولا تستحي من نفسك ولو قليلاً, يا من أُبتليتُ بأنك زوجي. لكن فلتكن على ثقة يا حاتم بأني لم ولن اسمح لك بأن تزوج ابنتك من شخص لا تحبه.

وصلت سمار إلى غرفتها وبعد أن استلقت على سريرها طلبت من الخادمة صفية أن تتركها بمفردها. أغمضت سمار عينيها ودموعها تجري على

خديها وهي تقول: عابد يا من هواه قلبي وأُسامر ذكراه ليل نهار, أحببتك وفي سبيل حبك سقيت نفسي مرارة الزواج من أخيك حاتم, هل علمت أنني من أُمك يا حبيب الفؤاد كنت عليك أغار؟

في هذه الأثناء إذ يخرج شخص من أحد جدران غرفة السيدة سمار لحظة أن أغمضت عينيها للنوم, إذ بعد أن خرج ذلك رجل من أحد جدران غرفتها, إذ تفتح سمار عينيها لترى رجلاً يبلغ من العمر الأربعين, عليه ملابس رسمية يا لبياضها الشديد, رجل وسيم الوجه مبتسم بابتسامة ما أشرقها حيث اقترب ذلك الرجل من سمار وجلس على كرسيٍ كان بالقرب من سريرها, وهي في وسط ذهولها جلست بدورها على سريرها. وهي تنظر إليه بعينين دامعتين وبوجه مبتسم لرؤيته وقالت: هل علمت ما صنع أخوك يا عابد؟ هل علمت بأنه قد ظلم زوجتك وابنك؟ هل رأيت جزاء إحسانك يا عابد مع أخيك الظالم؟

عابد وبوجه مشرق وينبعث من وجهه وهج أبيض وهو مبتسم: سمار.....أوصيكِ بزوجتي حليمة وولدي طه, فهم بقيتي التي قد غدرتها يد الطمع والجشع.

سمار وجريان الدموع مازال يواصل جريانه: وكيف لا يا نور عيني سمار, كيف لا يا من غفل عن حبي وعشقي له.

عابد: ليت طه يعلم ما ينتظره من عمه الظالم.

سمار وتحاول أن تقترب من عابد وهو بدوره ينهض من كرسيه الذي كان جالساً عليه وذهب باتجاه ذلك الجدار الذي خرج منه حتى غاب فيه. يتبع ذلك الحدث استيقاظ سمار والتي قالت: أكان حلماً؟! لا بل وصيةً من معشوقي الذي غفل عن عشقي له, وهيهات إن لم أُنفذ وصيته ولو كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي.....

(9)

رسائل القلوب

من الصباح الباكر وتحديداً قبل شروق الشمس بدقائق معدودة إذ يجهز كل من عبدالرحمن وكوثر الخبز لأهل المدينة. حيث كانت هناك بعض الطلبات التي سيتكفل شُبير بإرسالها بدراجته الهوائية إلى أصحابها.

عبدالرحمن وهو يضع بعض الخبز في كيس خاص ويقوم بوضعه مع مجموعة الأكياس على طاولة بالقرب منه: عزيزتي كوثر.

كوثر وهي تخرج العجين من آلة العجن لتصنع منه قِطعاً جاهزة للخبز ومن ثم وضعها في الفرن: نعم يا عبد الرحمن.

عبدالرحمن بعد أن أنهى توزيع الخبز على الأكياس كلٍ حسب الطلبية لأصحابها: الشكر لله إذ أن شُبَّر قد حدثت له طفرة إيجابية في صحته نحو الأفضل كما قال طبيبه في صباح الأمس. ولكن لا يخفى عليكِ أني متفاجئ لهذا الأمر الذي حاولنا جاهدين أن نفعله من دون جدوىً تذكر في الماضي لتحسين حالته.

كوثر بعد أن أكملت إعداد قِطع العجين لوضعها في الفرن: نعم هذا صحيح, فالابتسام والخروج المتكرر مع شُبير وأصدقائه خير دليل على ذلك.

عبد الرحمن: أنا أتساءل عن سبب هذا الأمر يا عزيزتي كوثر.

كوثر: اعتقد أنني أعرف السبب.

عبدالرحمن بعد أن أكمل ترتيب أكياس الخبز: وما السبب في اعتقادك؟

كوثر وهي ترفع من درجة حرارة الفرن ليصبح جاهزاً لإنضاج الخبز إذا ما وضع العجين فيه: إنه ياسين.

عبدالرحمن وهو يركز نظره نحو كوثر متسائلاً: ياسين؟

كوثر: نعم ذلك الشاب الذي انتقل إلى هذه المدينة مؤخراً.

شُبير وقد دخل لتوهِ للمتجر من الباب الذي يربط ما بين المتجر و البيت وهو يقوم بتثبيت خوذته الخاصة بدراجته الهوائية على رأسه, استعداداً لإيصال طلبيات الخبز إلى أهلها: نعم هذا صحيح, فمنذ أن تعرف شُبَّر على ياسين لاحظت أن صحته بدأت بالتحسن شيئاً فشيئاً وبسرعة ملحوظة. ولا يخفى عليكم إذ أنني أيضا تأثرت بـ(ياسين) لسبب لا أعلمه. فقد أحببته لأول لقاء لنا معه و.....وكأني أعرفه من قبل..... يبتسم شُبير ويكمل قائلاً: سأذهب لتوصيل الخبز وإلا تأخرت عن إيصاله إلى الزبائن.

كوثر: حسناً يا بني رافقتك السلامة.

عبدالرحمن وهو يدخل قطع العجين التي أعدتها كوثر إلى الفرن كي تنضج: ألا تلاحظين أن كلامه غريب؟

لم تردَّ كوثر على كلام عبد الرحمن فناداها قائلاً: عزيزتي كوثر.

انتبهت كوثر متفاجئة: هل كنت تكلمني؟

عبدالرحمن: إذاً كنتِ تفكرين في كلام شُبير. أليس كذلك؟

كوثر وهي تجلس على كرسيٍ بالقرب منها: غريب, إن أمر ذلك الفتى ياسين غريب حقاً.

عبدالرحمن وهو يُدخل وجبة أُخرى من قِطع العجين والتي أعدتها كوثر لتوها إلى الفرن, قال بعد أن انتهى وهو يستند بيده على طاولة تجميع الخبز: ما الشيء الغريب يا عزيزتي؟

كوثر: كيف لشخص انتقل لتوه لهذه المدينة ولم نره سابقا لنحبه بسرعة هكذا؟

عبدالرحمن: لابد أنه طيب القلب, أو لأنه قد يكون أحد الأسباب التي ساعدت شُبَّر في تماثله للشفاء.

كوثر: لا أعتقد ذلك.

عبدالرحمن: وماذا في اعتقادك؟

كوثر: زوجي العزيز؟

عبدالرحمن: نعم.

كوثر: هل تؤمن برسائل الغيب؟

عبد الرحمن: وما هي رسائل الغيب؟

كوثر: عندما رأيت ياسين لأول مرة تغيرت نبضات قلبي, فأصبحت نبضاته أسرع من المعتاد.

عبد الرحمن: هذا غريب حقا!

كوثر: بل هناك ما هو أغرب.

عبدالرحمن: و ما هو؟

كوثر: لحظة دخوله للمتجر, ولحظة تغير ضربات قلبي سمعت قلبي وكأنه يقول إنه فجر اللقاء يا كوثر, وما أخبرك به الآن ليس وهماً أو خرافة.

عبد الرحمن: لا أُخفي عليكِ فأنا قد أحببته أيضاً كحبي لـ(شُبَّر) وشُبير, عندما التقيت به لأول مرة, فالحق أقول كان شاباً متميزاً بثقافته. ولا أعلم ما سبب حبي المفاجئ له, ألأنه شاب مهذب؟ أم لأن هناك سبباً آخر أجهله؟

كوثر: وأنا لا أعلم السبب أيضاً.

عبدالرحمن: لدي فكرة سديدة يا عزيزتي.

كوثر باستغراب: فكرة؟ وعن ماذا لديك فكرة يا عزيزي؟

عبدالرحمن مازحاً: الفكرة هي أن نخبز الخبز قبل أن يأتي أهالي المدينة ويجدوننا جالسين هكذا.

تبتسم كوثر مع ضحكة خفيفة: حسناً, حسناً.

وبعد أن أكملا إعداد الخبز وصاحبهما ما صاحبهما من التعب الذي لحق بهما والذي كان مصحوباً بحرارة الفرن. وبقدوم شُبير بعد أن أوصل جميع الطلبات من أكياس الخبز إلى أهلها. إذ يدخل سامر إلى المتجر لشراء الخبز, وبعد إلقاء التحية وردها.

شُبير بابتسام: سامر! كيف حالك يا فتى لمَ هذا الغياب الطويل؟

سامر: أهلاً بك يا عزيزي شُبير وشكراً لك. أما سبب غيابي فقد كنت أبحث عن عمل ولله الحمد استطعت أن أجد عملاً جيداً لي لأعيل عائلتي.

كان هناك رجل كبير بالسن كان متواجداً في المتجر أيضاً لشراء الخبز, وكان ينظر بتمعن لسامر وعلى وجهه نظرات استغراب وتركيز شديد, فقال سامر بعد أن لاحظ ذلك: ماذا هناك يا سيدي؟ لمَ تنظر لي هكذا؟

الرجل الكبير بالسن وكان اسمه سعدون: أظنني أعرفك من قبل يا فتى, ألست أنت سامر؟

سامر وقد بانت على وجهه علامات الاستفهام: ومن أين لك أن تعرفني؟

سعدون وهو يهم بالخروج من المتجر وبيده كيس الخبز الذي قام بشرائه: لقد سمعت اسمك من هذا الفتى للتو ....وأشار إلى شُبير وهو يقهقه.

لم تستطع كوثر كتمان ضحكتها بعد أن خرج سعدون فضحك كل من شُبير وسامر.

أثناء ذلك سمع الجميع سعدون وهو يرد التحية على شخص كان يقف خلف دفة باب المتجر مما لم يتمكنوا من رؤيته وهو يلقي التحية على سعدون.....لحظة خروج سعدون من المتجر: أهذا أنت؟! كيف حالك يا بني؟

فرد عليه ذلك الشخص: بخير يا عم شكرا لك.

سعدون: حسناً. طاب يومك, والى اللقاء.

ثم دخل ذلك الشخص إلى المتجر فتعرف عليه الجميع لأنه هو نفسه ياسين. هنا توقف الزمن عند كوثر التي قالت: لماذا؟ لماذا كلما وقع نظري على هذا الشاب الذي يقارب عمره عمر شُبَّر يصرخ قلبي قائلاً يا كوثر؟..... لماذا كلما وقع نظري على هذا الشاب تكاد أن تدمع عيناي؟ يا له من شعور في قمة الغرابة. تمعنت كوثر في معاني وجهه وقالت في نفسها تلك الابتسامة أقسم يا هذا إني رأيتك من قبل فمن تكون؟ ..... أكمل الزمن جريانه.

ياسين: السلام علكم.....رد الجميع: وعليكم السلام.

ياسين: شُبير وسامر لقد اشتقت حقاً للقائكما من جديد بعد هذا الغياب الذي ليس بالقصير.

شُبير والابتسامة ارتسمت على وجهه بخطها العريض ولم يستطع أن يتكلم غير كلمة: ياسين.

ياسين وهو يحول نظره إلى سامر: كيف حالك يا سامر.

سامر: بخير يا ياسين شكراً لك.

ياسين: كيف حال السيدة الطيبة.

كوثر: بخير يا ياسين, وكيف حالك أنت؟

ياسين: سأكون على حال أفضل لو رأيت شُبَّر الآن فقد اشتقت إليه كثيراً.

في هذه اللحظة يدخل شُبَّر على عجالة واستقر نظره نحو ياسين للحظات دون أي كلمة, نعم لم ينطق ولو بكلمة واحدة.

ياسين: وكأن هذا الغياب يا شُبَّر دام لسنة كاملة. أليس كذلك؟

يقترب شُبَّر وهو يحرك عجلات كرسيه المتحرك نحو ياسين ليستقر بالقرب منه: أنت مذنب يا ياسين ولقد أخطأت بحقي. فالصديق الحقيقي حقاً لا يتأخر عن صديقه ليرى كل منهما الآخر, فكيف بغيابك هذا.

ياسين: ثق أنه لن يمنعني عن لقاءك إلا الجديد الشديد. فالحق أقول العمل مؤخراً كان ثقيلاً عليَّ.

كوثر: لا تكن قاسياً عليه يا بني. فالتمس للغائب سبعين عذراً.

شُبَّر: إن الأمر ليس بيدي يا أمي, ولكن منذ أن تعرفت على ياسين شعرت وكأنه.....في هذه اللحظة بالذات أطرق شُبَّر برأسه إلى الأرض يا ترى (وكأنه ماذا يا شُبَّر)؟

شُبير: وكأنه ماذا يا أخي؟

شُبَّر: وكأنه صديق الطفولة وليس صديقاً جديداً منذُ أيام معدودة.

ياسين وقد ابتسم: بل هذا من حسن طيبة قلبك يا عزيزي شُبَّر. ولا أخفي عليك فمنذ أن عرفتك وإلى هذه اللحظة وكأنك شخص مقرب مني أكثر من كونك صديقاً لي.....ثم استطرد قائلاً: شُبير.

شُبير: نعم يا ياسين.

ياسين: أنا سأخبر طه بأن لقاء مجموعتنا هذا اليوم عند المقهى المعتاد عصر هذا اليوم. هل يمكنك أن تخبر من هم بالقرب من هنا أعني أصدقاءنا.

شُبير: حسناً يا ياسين, سأفعل.

ياسين: وأنت يا سامر هل يمكنك أن تخبر من هم بالقرب منك.

سامر: حسناً يا ياسين سأخبرهم, وسيكون موعدنا عند ذلك المقهى عصر هذا اليوم.....أما الآن فاسمحوا لي أن أذهب لأن العاملين الذين أعمل معهم في العمل في انتظاري لآخذ الخبز لهم ....إلى اللقاء.

ياسين: إن لم يمانع شُبَّر وشبير سنخرج معك وستودعنا خارج المتجر بعد أن نقطع معك شيئاً من الطريق.

شُبَّر: بالطبع لا مانع لدينا.

ياسين إلى كوثر: عن إذنك يا سيدتي.

كوثر: إذنكم معكم يا بني.

سار الأصدقاء خارج المتجر وقطعوا بعض الطريق مع سامر الذي كان يحمل الخبز معه إلى مكان عمله لباقي العاملين الذين كانوا يعملون معه في مكان عمله, ولكن وأثناء سيرهم هذا إذ يوقفهم نداء يقول: إذاً أنت هو ياسين, أليس كذلك؟..... لقد ظهر ذلك النداء فجأة من خلفهم فتوقف الجميع ليروا شاباً ذا ملابس رسمية مبالغاً بشدة سوادها ,وقوفه ينم عن الثقة الكبيرة بنفسه إذ كان يضع يداً بجيبه ويضع راحة يده الأخرى على عصاة سوداء له, كانت العصا من خشب الزان وهو أكثر أنواع الأخشاب شهرة فهو من الأنواع الغالية والثمينة حيث يتميز هذا الخشب بصلابته وقوته, كانت العصا ذا رأس كروي بلونٍ ذهبي, و كانت تعلوا رأس ذلك الشاب قبعة سوداء أيضا, مستديرة الشكل وهو ينظر لـ(ياسين) وأصدقائه. ابتسامته و نظراته تجاه ياسين والأصدقاء بل وحتى طريقة وقوفه, كان كل ذلك يدل على الثقة الكبيرة بنفسه. كأن الشر يتطاير من عينيه, لا أعلم كيف لبقعة الأرض التي كان يقف عليها, كيف استطاعت حمله؟! لقد ركز كل نظره نحو ياسين وقال:

سأعترف لك بشيء يا ياسين, فلأول مرة يثير إعجابي شخص من هذه المدينة بذكائه الذي أوقع بثقيل, ودقة تخطيطك لتلك الخطة التي رسمتها للإيقاع به, ونجاح الخطة حرفياً ومن دون أية أخطاء تُذكر. فالحق أقول كانت خطة عبقرية.

ياسين بهمس لأصدقائه: هل يعرف أحدكم هذا الغريب الذي أوجستُ منه الحذر الشديد؟

سامر وقد ضغط على كيس الخبز الذي كان يحمله بين يديه من دون أن يشعر بذلك, بسبب هول ما يرى أمامه: نعم يا ياسين أنا اعرفه, إنه زعيم أكبر عصابة عرفتها هذه المدينة إنه زعيم عصابة العقارب ويدعى الأسود, وهو شخص خطير جداً, وبما أنه ذكر ثقيلاً فنحن لسنا بأمان منه إذاً.

أثناء ذلك إذ يختفي الأسود بعد أن صعد بعربة سوداء يجرها حصان أسود أصيل. بعد هذا المشهد الذي مرَّ على الأصدقاء دب في نفوسهم اللا اطمئنان.

فقال ياسين مهدئاً من روعهم: لا بأس, لا تهتموا لأمره. وأنت يا سامر أظنك ستتأخر إن لم تسرع لعملك, ولا تنسَ موعدنا عصر هذا اليوم.

سامر: كما تريد يا صديقي.

ياسين قائلاً لـ(شُبَّر) وشبير: والآن أنتما الاثنان, سأوصلكما لمنزلكما.

شُبَّر: حسنا يا عزيزي كما تريد.

ياسين في قرارة نفسه: يبدوا أننا سنخوض شيئاً من وجع الرأس مع ذلك الأسود زعيم عصابة العقارب, فالأسود قد ترك رسالة مفادها انتظروا ضربتي القاضية, ولا أعلم أين وكيف سيوجه تلك الضربة.....

(10)

إخوة قد ولدتهم الأيام

والظروف.....

عند المكان المعتاد للقاء الأصدقاء اجتمع الجميع هناك, كان هدف ياسين من هذا اللقاء هو مساعدة طه على استرجاع إرث والده الذي استولى عليه عمه حاتم بغير حق. ولكن وقبل كل ذلك ابتدأ اللقاء بضحك وتسامر مع بعضهم, وكل منهم ذكر المواقف الطريفة التي حدثت معهم. فقد علا على ذلك اللقاء الضحك والابتهاج ومزاح فارس مع آدم ومراد، إذ كان فارس من النوع المشاكس قليلا.

وفجأة يقطع ضحكاتهم التي أتعبت عضلات وجناتهم من ضحكهم وابتسامهم المستمر, يقطع كل ذلك قدوم مفاجئ للسيدة كوثر وما إن رآها الأصدقاء حتى قال شُبَّر: قدومٌ كشخص خائف وشحوب وجه, وعينين دامعتين, لا يبشر إلا بوقوع طارق سوء.

كوثر بصوت يعتريه الخوف والذهول من سوء طارق قد وقع: شُبَّر بني.

شُبَّر: أين أبي.

شُبير بصوت يعتريه القلق الشديد: أمي ما الذي جرى.

لقد حل هدوء في أرجاء المكان.....يا لشدة علو صوت وقوع الإبرة على الأرض إن كان لها وجود هناك في تلك اللحظة. يتقدم شُبَّر وهو يدوّر عجلات عربته نحو والدته، بعد أن سبقه شُبير بذلك.

شُبَّر: أخبريني، هل أبي بخير؟

كوثر: الشرطة أخذت والدك يا بني.

شُبير الذي تقدم نحوها مسرعاً, وقال بذهول: ولماذا أخذوا أبي؟

كوثر: لقد أخبرني أمين أن هناك تهمة تدين والدك قد سلمها شخص مجهول مع أدلة تثبت بأن والدك قد قام بشراء طحين لمتجرنا بأموال وأوراق مزورة.

شُبَّر وهو يحني رأسه أنا أعرف والدي جيداً ومن سابع المستحيل أن يقدم على أمرٍ كهذا.

ياسين وقد تقدم نحو السيدة كوثر ليجلسها على إحدى مقاعد الطاولة التي كانوا مجتمعين عليها: سيدتي أنا لم أتعرف عليكم إلا منذُ أيام قلائل. و لكن والدتي قد حدثتني بكل شيء تعرفه عن صيتكم النقي. لأن لها بكم معرفة سابقة وأنا على يقين بأن السيد عبد الرحمن لن يقدم على مثل هذا العمل.

طه: ما العمل الآن؟

فارس وهو يقدم كأساً من الماء للسيدة كوثر: سيدتي كل شيء سيكون على ما يرام.

أثناء الحيرة والاندهاش الذين خيما على الجميع إذ يقترب شخص غريب من طاولتهم, وسأل قائلاً: من منكم ياسين؟

ياسين: نعم تفضل, أنا ياسين.

يُخرج ذلك الشخص الغريب من جيبه ظرفاً أسود اللون ومختوم عليه بالشمع الأحمر حيث كان الختم على شاكلة العقرب, ويناول الظرف لـ(ياسين), وينصرف ذلك الشخص بسرعة من دون أي كلام.

ياسين وهو يحاول إيقاف الشخص الغريب بمناداة ذلك الشخص الذي كان يحمل الظرف الأسود: ولكن لم تخبرني من أنت يا هذا؟ وممن هذا الظرف؟

لم يأبه حامل الظرف الأسود, بل ولم يلتفت لـ(ياسين) حتى.

نعيم: ياسين, هل كنت تنتظر رسالة أو ما شابه ذلك وله علاقة بالظرف؟

ياسين: كلا يا عزيزي, لم أنتظر أي شيء مما ذكرت.

نجاح: إذاً لمَ لا تقم بفتح الظرف الغريب هذا, فلأول مرة أرى ظرفاً أسود كهذا.

مراد وكأنه استدرك شيئاً: تذكرت, أعرف من يكون ذلك الشخص يا ياسين.

ياسين: حقاً, من يكون يا مراد؟

مراد: إنه أحد أفراد عصابة العقارب.

سامر: هذا يعني أن هذه الرسالة تخص قضية السيد عبد الرحمن بلا شك.

ياسين وهو يفتح الظرف الأسود ليخرج منها رسالة تقول:

"لقد أعجبني تخطيطك وذكائك للإيقاع بثقيل أحد أفراد عصابتي عصابة العقارب. ولكني أريد أن أرى شجاعتك و تخطيطك هذه المرة لإخراج ثقيل من السجن, وأنا بدوري سأُخرج السيد عبدالرحمن من السجن بعد أن أقدم الدليل القاطع لبراءته لمخفر الشرطة, بعد أن أوقعنا به بأوراق مزورة.

زعيم عصابة العقارب (الأسود)**"**

ياسين: يا إلهي.

شُبَّر: أله علاقة بوالدي يا ياسين.

ياسين: نعم يا شُبَّر.

كوثر: ما الذي كُتب في الرسالة يا ياسين.

ياسين: لقد تم الإيقاع بالسيد عبد الرحمن بتهمة باطلة والذي أوقعه هم عصابة العقارب.

الجميع بذهول: ماذا؟!..... فقال فارس: عصابة العقارب؟!

كوثر وقد ازدادت حزناً: يا إلهي.

زهير: أولئك الأوغاد.

سامر: ما العمل الآن يا ياسين.

ياسين: سنذهب أنا وشبر الآن لمخفر الشرطة وسنستفسر أكثر عن قضية السيد عبدالرحمن.

شُبَّر: وماذا تريد أن تعرف منهم؟

ياسين: سنرى إلى أي حد يمكن أن تصل قضية والدك؟

شُبير: ماذا تقصد إلى أي حد يا ياسين؟

ياسين: شُبير دعك من هذا الآن يا عزيزي, و اصطحب والدتك إلى منزلكم لتأخذ قسطاً من الراحة الآن.

كوثر: ياسين, أنا أعلم انك لا تريد أن تخبر شُبير أمامي, لأي حد يمكن أن تصل قضية عبدالرحمن. لأن قضيته يمكن أن تصل أكثر مما هي عليه الآن ولا شك في هذا.

ياسين: سيدتي؟

كوثر ودموعها تجري على خديها: ياسين دعني اذهب معكم.

ياسين: شُبير خذ والدتك, واذهب إلى منزلكم. أنا وشُبَّر سنذهب إلى مخفر الشرطة, لنرى والدك ولنفهم القصة منه.

زهير: ياسين, ونحن.....هل هنالك شيء يمكننا فعله الآن؟

ياسين: نعم يا أصدقاء, انتظروا مني خبر اجتماع لنا, والآن إلى اللقاء.

تفرق الجميع, وتحولت تلك الوجوه الباسمة الضاحكة إلى وجوه عابسة حزينة. يعلوها تساؤل عَلِق في ذهن كل واحد من الأصدقاء كيف سيخرج السيد عبدالرحمن من هذه المحنة؟ والتي لم يحسب لها حساباً, بل ولم تخطر حتى على الأذهان.

لحظة وصول ياسين وشُبَّر إلى مخفر الشرطة الذي احتجزوا فيه عبدالرحمن. إذ وجدوا أمين عند باب مخفر الشرطة, وما أن رأى الشرطي أمين شُبَّر حتى أسرع نحوه.

شُبَّر: أمين.

أمين: شُبَّر بني.

شُبَّر: أرجوك أخبرني هل صدقت بأن.....يقاطعه أمين قائلا: لا يا بني من المستحيل أن يفعل والدك أمراً كهذا.

شُبَّر: ولكن لمَ تم احتجازه؟

أمين كل الأدلة تشير إلى أنه..... صمت أمين والحزن واضحٌ عليه. وقال شُبَّر: إلى ما تشير الأدلة يا أمين؟

أمين: إلى أن السيد عبدالرحمن قد استخدم أوراقاً وأموالاً مزورة لشراء طحين لمتجركم.

ياسين: سيدي يجب أن نرى السيد عبدالرحمن.

أمين: لا يا بني, إن الإجراءات القانونية لا تسمح لكم بزيارة السيد عبدالرحمن الآن.

شُبَّر: وهل ستمنعنا يا أمين؟

أمين بتعجب من ردت فعل شُبَّر: لا يا بني, لست أنا من يمنعكم إن الضابط قد أعطى أوامر تقتضي بعدم السماح لأي كان أن يزور والدك.

ياسين: سيدي اسمح لنا بالدخول إلى الضابط, واترك الأمر لنا. فقد نستطيع أن نقنعه بالسماح لنا بزيارة السيد عبدالرحمن لنفهم القصة منه.

أمين: حسننا يا بني, ولكن ليكن بعلمك بان هذا الضابط متعجرف ومتكبر, بل ومغرور أيضا فهو لا يرى إلا نفسه ويظن بأنه شخص كبير, ويتصور نفسه سيدا على الأرض وليس على مقر الشرطة هذا فقط, لذا احذرا من جداله.

عند وصول ياسين وشبر إلى غرفة الضابط وبعد أن استأذن لهما الحارس الذي يحرس الغرفة الخاصة بالضابط دخل كل من ياسين وشُبَّر: السلام عليكم.

الضابط وهو جالس خلف مكتبه, ويحدق بالشابين بنظرة يمكن تفسيرها, أنها نظرة تعجب للشبه الذي بين كل من ياسين و شُبَّر. فبدلاً من أن يرد الضابط التحية نطق قائلا: أرى أمامي اخوين والشبه بينهما لا يُوصف.

ياسين وقد وضع راحة يده على كتف شُبَّر, حيث قال ياسين: نعم يا سيدي أخوان, ولكن ليس من الأب أو الأم, إنما نحن أخوان عندما ولدتنا الأيام والظروف فأصبحنا أخوين.

الضابط بتعجب, وبعد أن اشبك أصابع يديه أمام فمه قال: أحقاً ما تقول أيها الشاب! وهل للأيام القدرة أن تلد مثل هذا الشبه الكبير الذي بينكما, ومن ثم جمعكما معاً!

ياسين: إن الذي تتحدث عنه الآن يا سيدي يسمى القَدر.

الضابط وقد رفع أحد حاجبيه وأمال رأسه جانباً: وما تقصد بالقدر أيها الشاب؟

ياسين: سيدي إن الأيام قد تكفلت بولادتنا, والقدر قد تكفل بجمعنا معاً.

الضابط هاتفاً: مرحاً لك أيها الشاب, فلك منطق جميلةٌ كلماته. ولكن اخبرني, إن تكفلت الأيام بولادتكما, وتكفل القدر بجمعكما, أو ليس للصدفة يدٌ فيها؟

ياسين: سيدي إن الذي تتحدث عنه الآن يسمى ما وراء الطبيعة.

الضابط ينزل يديه ويضعهما على مكتبه لشدة استغرابه بسبب إجابة ياسين: وماذا تقصد بما وراء الطبيعة يا بني؟

ياسين: سيدي أنا لا أؤمن بشيءٍ يسمى الصدفة. فأنا قد تمنيت أن أحصل على صديق مثل الأخ فرزقني الله بأكثر مما تمنيت فحصلت على أخي هذا.....حيث وضع ياسين راحة يده على كتف شُبَّر, ووضع الأخير راحة يده أيضاً على يد ياسين وهو ينظر لـ(ياسين).

الضابط: كلامك جميل جداً يا بني. و آلان أخبراني ما اسم كل منكما.

ياسين: أنا ادعى ياسين.

شُبَّر: وأنا شُبَّر وابن السيد عبدالرحمن.

الضابط وقد أعاد يديه وأشبك أصابعه وجعلهما قبضة واحدة أمام فمه مرة أخرى: وكم عمرك يا ياسين؟

ياسين: أنا في العقد الثاني يا سيدي.

الضابط: ريعان شبابك,..... ثم نظر إلى شُبَّر قائلا: وأنت يا بني كم عمرك؟

شُبَّر: عمري تسعة عشر.

الضابط: نعم, ولمَ أتيتما إلى هنا؟

شُبَّر: جئنا لنرى والدي.

الضابط: في الواقع لا يُسمح بزيارة السجين حسب الإجراءات القانونية وحسب الأوامر التي أصدرتها أنا للتو, ولكن وكتعبير عن جمال منطقك يا ياسين سأسمح لكما بزيارة السيد عبدالرحمن, ولكن أرجو منكما أن لا تطيلا الزيارة هناك فهذه إجراءات قانونية يجب أن لا تُكسر.

ياسين وشُبَّر :شكرا لك سيدي.

خرج كل منهما من غرفة الضابط نحو الزنزانة التي أُحتجزَ فيها السيد عبدالرحمن حيث قال شُبَّر: أحسنت ياسين لقد أنقذت الموقف.

ياسين بابتسام وهو يواصل دفع عربة شُبَّر: شكرا لك يا عزيزي.

لحظة وصول الاثنين إلى الزنزانة وبعد أن سمح لهما الحارس الخاص بها قال شُبَّر هاتفاً: أبي.

عبدالرحمن يسرع نحو القضبان الحديدية ويمسكها بيديه: بني شُبَّر ياسين أهلا بكما.

شُبَّر: أبي أرجوك أخبرني ماذا..... يقاطعه عبدالرحمن: بني, أنا أيضاً لا أعرف ما الذي جرى.

ياسين: سيدي هل تشتري الطحين من عدة متاجر أم أنك تقصد متجراً واحداً في كل مرة تتسوق فيها؟

عبدالرحمن وقد ترك القضبان الحديدية وجلس على كرسي كان موجوداً معه في الزنزانة: نعم يا بني دائما ما أقصد متجراً واحداً في كل مرة.

ياسين: ومن هو صاحب مخزن الطحين الذي تتسوق منه؟

عبدالرحمن وقبضتاه إحداهما تضغط على الأخرى, قال وقد أحنا رأسه إلى الأرض كشخص يدور في رأسه تساؤل ما: إنه يدعى سميح.

شُبَّر: ولكن يا أبي , أنا اعرف بأن سميحاً يثق بك ويكن لك احتراماً كثيراً.

عبدالرحمن: بسبب ما قلت يا بني أنا استبعد أن يتهمني سميح بأني قد اشتريت الطحين بأوراق وأموال مزورة منه.

ياسين: تحليلك صائب يا سيدي.

عبد الرحمن: ماذا تقصد يا بني؟

ياسين: إن من قام بخداع الشرطة يا سيدي هم عصابة العقارب.

عبدالرحمن وهو ينهض ويقترب من القضبان الحديدية ويمسكهما بيديه مرة أخرى: وكيف ذلك يا بني؟

ياسين: لا نعرف كيف فعلتها تلك العصابة الشرسة, ولكنهم أرسلوا لنا رسالة مضمونها أنهم هم من دبروا لك هذه المكيدة, وأستغرب لمَ استهدفوك أنت بالذات يا سيدي.

شُبَّر: اعتقد بأني أعرف السبب.

ياسين: وما هو يا عزيزي شُبَّر؟

شُبَّر: أعتقد أن السبب هو أننا قد قمنا بإخراج سامر من السجن بعد أن سلمنا ثقيلاً للعدالة.

عبدالرحمن: عن ماذا تتكلم يا بني؟

شُبَّر: أبي, مؤخراً قامت عصابة العقارب بإلصاق تهمة بأحد أصدقائنا يدعى سامر. وعلى أثر تلك التهمة قد زُج صديقنا سامر السجن, ونحن كنا متأكدين من براءته, لذا قمنا باحتجاز أحد أفراد العصابة ويدعى ثقيلاً, ثم قمنا بتقديمه للشرطة, حيث اعترف بان سامراً بريء من التهمة التي ألصقت به.

ياسين: ولكن لمَ قاموا باستهداف والدك بالذات يا عزيزي شُبَّر؟ فكل الأصدقاء قد شاركوا بإمساك ثقيل.

عبدالرحمن: أعتقد أن هناك سبباً آخر, وهو أن عصابة العقارب..... وقاطعه ياسين: طلبوا منكم دفع الضرائب فرفضت, أليس كذلك يا سيدي؟

عبدالرحمن: هذا صحيح يا بني, ولكن كيف علمت بذلك؟

ياسين: كنت احتاج لتلميح فقط.

الشرطي الخاص بزنزانة عبدالرحمن ساخراً: أنتما, هيا تفضلا بلا مطرود, فقد انتهى وقت الزيارة.

شُبَّر: أبي....يقاطعه عبدالرحمن: لا يا بني لا تحزن, فالزمن يرينا الأوجاع لأمر فيه خير لنا.

ياسين: سيدي هل السيدة كوثر تعرف مخزن الطحين الذي تتسوق منه في كل مرة؟

عبدالرحمن: نعم يا بني, ولكن لمَ تسأل؟

ياسين: إذاً سنذهب أنا والسيدة كوثر غدا صباحاً لنرى القصة من زاوية صاحب مخزن الطحين سميح.

عبدالرحمن: حسناً يا بني كما تريد, وشكراً لك.

حارس الزنزانة مجدداً وبتجهم: أأتكلم معكما أم مع جدران الزنزانة؟! قلت لكما هيا تفضلا بلا مطرود.

شُبَّر: حسناً يا أبي إلى اللقاء.

عبدالرحمن: إلى اللقاء يا بني, وأخبر والدتك وأخيك بأن لا يحزنا.

خرج ياسين و شُبَّر وكان حارس الزنزانة ينظر لهما بطرف عينيه, عابس الوجه وجفناه تغطيان نصف عينيه وحاجباه أحدهما أعلى من الآخر وقال ساخراً: هل تعجبكما الزنزانة لهذا الحد؟

فكان رد ياسين قاسيا: لا, بل أعجبنا وجه حارسها البشوش.

ازداد عبوس وجه الحارس ونزل طرفا حاجبيه للتعبير عن شدة غضبة, فيما كان شُبَّر يحاول أن يكتم ضحكته بكل ما أوتيَّ من قوة لذلك.....

(11)

القوانين وضِعت لتُكسر....

في الصباح الباكر استقل كل من ياسين و كوثر عربة أُجرة قاصدين فيها مخزن الطحين, ذلك المخزن الذي يتسوق منه السيد عبدالرحمن, كانت كوثر تنظر لـ(ياسين) الذي كان يغط بقراءة كتاب أحضره معه ليطرد عن نفسه ملل طول الطريق حيث كانت نظرات كوثر إليه نظرات تمعن في معاني وجهه. وفي لحظة ما انتبه ياسين لها واستقرت عيناه في عينيها, أثناء ذلك شهقت شهقة وسمعت قلبها يقول: إنه فجر اللقاء يا كوثر.... كان هذا النداء الثاني لها إذ سمعت هذا النداء سابقا ولم تفهم ما كان يقصد قلبها فهي من النوع الذي تهتم كثيرا برسائل الغيب, تبسمَ ياسين وقال: ماذا هناك يا سيدتي؟..... خجلت كوثر ولم تعرف ما هو التصرف السليم في مثل هكذا موقف. فليس من الصواب أن تمعن النظر في وجهه بهذه الطريقة, فقالت: لا يا بني لا شيء, ولكن كل ما نظرت إليك أتذكر ابني شُبَّر, فأنتما متشابهين إلى حد كبير.

قد يكون هذا احد أسباب نظرات كوثر لـ(ياسين), ولكن قطعاً ليس السبب الرئيسي, فالسبب الأول هو لماذا كلما استقر نظرها على ياسين يخفق قلبها ويحن ويقول: يا كوثر إنه فجر اللقاء.....حيث قالت: ماذا يقصد قلبي بهذا الكلام؟ وأي لقاء يقصد؟ ولماذا كلما نظرت لـ(ياسين) تتغير مشاعر قلبي؟.....

عند وصول ياسين وكوثر إلى مخزن الطحين المقصود استقبلهما أحد العاملين هناك إلى أن أوصلهما إلى غرفة مالك المخزن. لقد كان صاحب المخزن رجلاً كبيرا في السن قليلا, جالساً خلف مكتبه, يدير المخزن ويسيّر أوراق البضائع الواردة والصادرة من مخزنه حيث كانت على مكتبه لوحة صغيرة مكتوب عليها: مدير مخزن الطحين سميح.

ياسين: السلام عليكم.

سميح: وعليكم السلام, أهلاً بكما, تفضلا. كيف استطيع خدمتكما؟

ياسين بعد أن جلس وجلست كوثر مقابلة له عند مكتب المدير سميح: شكرا لك سيدي, نحن نمتلك مخبراً وكنا نشتري الطحين من عدة مخازن, ولكن كل المخازن يا سيدي لم تكن كما نريد من الثقة في نوعية الطحين الذي تبيعه لنا. لذا سمعنا بمخزنكم الذي ذاع صيته من جودة الطحين الذي تقومون ببيعه فقصدناكم .

سميح والبهجة قد ارتسمت على وجهه من الكلام الحسن الذي سمعه من ياسين: نعم , نعم هذا صحيح فنحن نبيع الطحين الذي له جودة عالمية.

ياسين وهو يركز نظره على سميح: ولكننا قلقون من التعامل معكم يا سيدي.

سميح والتوتر قد ساد على وجهه: قلقون بشأن ماذا أيها السيد؟

ياسين: سيدي نحن قلقون من أن تلصقوا بنا تهمة تزوير كما فعلتم مع السيد عبدالرحمن.

سميح وقد وثب واقفاً خائفاً والتوتر قد ازداد على وجهه: من تكون أيها السيد؟

وقفت كوثر هي الأخرى وقالت بصوتها الذي ينبئ ببكاء قريب: أرجوك يا سيدي, أنت تعرف عبدالرحمن جيداً, ومن المستحيل أن يقدم على تزوير الأموال والأوراق الخاصة بشراء الطحين منكم، فقد قال لي إنكم تثقون به كثيراً.

ياسين بعد أن استوى واقفاً وقد ادعى بأنه شُبَّر: أنا أدعى شُبَّر وابن السيد عبد الرحمن.

سميح منكراً: أنا لا افهم ما تقصدان، والآن تفضلا بلا مطرود.

ياسين وقد قدم رسالة زعيم عصابة العقارب إلى سميح: خذ, هذه الرسالة فيها تبيان كل شيء يا سيدي، ولا مجال للإنكار.

يأخذ سميح الرسالة وبعد أن أتم قراءتها جلس على كرسيه مطأطأً الرأس: نعم, نحن نثق بالسيد عبدالرحمن كثيراً ومن المستحيل, بل من سابع المستحيلات أن يقدم على أمرٍ كهذا، وأنا منذُ البارحة لم أنم بسبب عذاب الضمير صدقاني.

ياسين: ولكن لمَ قمت بإلصاق تلك التهمة بالسيد عبدالرحمن؟ إذا كنت على يقين بأنه بريء منها.

سميح وقد ضرب المكتب بكلتا قبضتيه ويتكلم بألم ينم عن حزنه الشديد وبعض من الندم وبصوت مرتفع: لقد هددوني بإحراق هذا المخزن الذي هو مصدر رزقي الوحيد, أتفهم ما معنى هذا الكلام؟

ياسين بصوت هادئ: عصابة العقارب أليس كذلك؟

سميح يهز رأسه بالإيجاب ودموعه بدأت بالجريان: نعم، إنهم هم, لقد هددوني بإحراق مخزني إن لم أفعل ما يطلبونه مني, وقد يحرقوه إذا قمت بتبرئة السيد عبدالرحمن أيضاً, فهل تعلم ما معنى أن يحرقوا مصدر رزقي الوحيد, هذا يعني الإفلاس تماماً.

ياسين يطرق برأسه للأرض وقبضتاه إحداهما تشد على الأخرى بقوة: إذاً بقي أمامنا حل واحد فقط.

كوثر: وما هو هذا الحل يا بني؟

لم يجب ياسين على سؤال كوثر, نهض واقفاً وقال: حسناً يا سيدي إلى اللقاء.

سميح وهو الآخر يقف أيضاً ودموعه قد بدأت بالجريان ثانيةً: أرجوك يا بني, بلغ سلامي للسيد عبد الرحمن وأخبره بقصتي, أخبره بأنني في وضع لا يحسد عليه, أخبره بأننا قد فقدنا أخاً وصديقاً قبل أن نفقد زبوناً محترما

لمخزننا, فالحق أقول لم نرَ شخصاً طيب القلب مثل السيد عبدالرحمن من قبل, أرجوك اخبره بذلك.

ياسين: أنا متأكد من أن السيد عبد الرحمن سيتفهم ظرفك جيداً, لذا لا تقلق بشأن هذا.

انصرف كل من ياسين وكوثر وعادوا أدراجهم إلى مدينتهم , ياسين كان يعلم بأن الباب مغلق من ناحية صاحب مخزن الطحين سميح. ولكن كان يريد إيجاد مبرر لما سيقدم على فعله من ناحية إخراج السيد عبدالرحمن من السجن قبل صدور الأمر بمحاكمته وقبل أن تسوء الأوضاع أكثر. عادت كوثر بعد أن استقلت عربة أجرة مع ياسين للعودة إلى مدينتهما حيث عادت خائبة الأمل فقد ظنت أنها ستعود بنتيجة مرضية, في ما عاد ياسين وقد ركز جل نظره نحو أرضية العربة ويداه كانتا إحداهما تشد على الأخرى, فقد كان يرسم خطة إخراج السيد عبد الرحمن من السجن, ولكن أثناء ذلك التفكير كان ضميره يؤنبه, لأن الخيار الوحيد الذي تبقى لديه هو أن يُهرّب ثقيلاً من السجن وفي مقابل ذلك سيقدّم الأسود الأدلة التي تثبت براءة السيد عبدالرحمن إلى مركز الشرطة, ولكن هذا الخيار ليس خياراً قانونياً صحيحاً إذ أن ثقيلاً مذنب, والقانون هو من يقرر متى سيخرج ثقيل من السجن. فقال بعد أن نظر إلى حقول القمح الذهبية من نافذة العربة التي تقلهم إلى مدينتهما: أحياناً يقولون إن القوانين وضعت لتُكسر..... لقد قرأ هذا الكلام في كتاب نظرية الفستق الذي قام بقراءته مرتين, لأن الكتاب كان جيداً ومحتواه الثقافي

مفيداً, ولكن كان يقصد بأن القوانين قد وضعت لتُكسر, يكون ذلك عندما يحول القانون دون تحقيق العدالة الحقيقي والتصرف بشكل سليم دون أن يتم تخطي حدود القانون فعلاً, وقضية السيد عبدالرحمن خير دليل من وجهة نظره. فيجب إخراج ثقيل بطريقة غير قانونية ليخرج السيد عبدالرحمن بطريقة قانونية هكذا هو قد فهم أن القوانين وضعت لتُكسر. ولكنه كان حزيناً جداً, فكيف يمكنه أن يُخرج ثقيلاً من السجن كيف؟ كانت كوثر تنظر إليه وهو واضع يديه على رأسه وهو محني الرأس إلى أرضية العربة. فقد علمت كوثر أن ياسين يفكر في ذلك الحل الوحيد الذي تبقى لديه. بعد أن وصلا إلى متجر عبدالرحمن خائبين والحزن سائد عليهما, كان هناك كل الأصدقاء بانتظارهم ولكن ما أن دخل ياسين إلى المتجر ركز جل نظره على طه حيث ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة, وكأن الأمل سيطير منه لشدة الحيرة التي وقع فيها. فما أن رآه طه نهض واقفاً والتساؤل كان واضحاً على وجهه: لمَ؟! لمَ أنا من دون كل الأصدقاء نظر لي ياسين بابتسامته الحزينة؟ هل هناك أمرٌ يتعلق بي ومرتبط بقضية السيد عبدالرحمن؟ أم أن هناك شيئاً آخر ولا أعلمه أنا؟.....كان ياسين مستمراً بالنظر لـ(طه)، وقال بصوت يعتريه الندم والحسرة وقليل من خيبة الأمل وبابتسامة مصطنعة: أنا آسف يا صديقي يجب أن تنتظر.....هنا كان طه يعتقد بأن السؤال عن ماذا يقصد ياسين؟ في مثل هكذا موقف ليس مناسباً لذا أجل السؤال لوقت آخر, حيث اكتفى الأخير بالصمت. اتكأ ياسين على أحد جدران المتجر حيث أشبك ذراعيه مطأطأً الرأس إلى الأرض, أثناء ذلك اكتفى كل الأصدقاء بالصمت, وكل

منهم كان يريد أن يسأل: ما العمل الآن؟؟؟ ولكن كل منهم كان يعلم بأن هذا السؤال قد يزيد الحزن على عائلة السيد عبدالرحمن, لذا اكتفى الجميع بالصمت أيضاً.

كوثر ودموعها بدأت بالنزول: ياسين.

ياسين ينظر لكوثر والحَيرة قد خيمت على وجهه وكانت واضحة المعالم وما زال صوته يعتريه الندم والحسرة بالإضافة إلى ذبول بطبقة صوته: نعم يا سيدتي.

كوثر تنظر إليه بعينيها الدامعتين: لقد سمعتك تقول بأنه لم يتبقَ لديك إلا حل واحد فقط, فما هو؟

ياسين: سيدتي, سيخرج السيد عبدالرحمن من السجن صدقيني, ولكن..... ثم صمت قليلا, فليس من الصائب أن يقول سأهِّرب ثقيلاً من السجن كي يخرج السيد عبدالرحمن!, لأنه كان يقدس القانون جيداً, فتهريب ثقيل ليس خياراً قانونياً صائباً, ولكنه كان مضطراً لهذا الأمر. حيث قال في قرارة نفسه: ولكن كيف يمكنني إخراج ثقيل من السجن؟ كيف استطيع تهريبه؟ والأكثر حَيرة من هذا السؤال هو كيف بإمكاني اقتحام مخفر الشرطة؟ هنا أصاب رأس ياسين دوار شديد حتى فقد اتزانه وكاد أن يقع على الأرض لو لم يمسكه زهير.

زهير بصوت مرتفع قليلاً: ياسين, ما بك يا صديقي؟ هل أنت بخير؟.....الجميع بصوت واحد: ياسين.

ياسين وهو ينهض واقفاً: لا بأس يا عزيزي زهير, مجرد دوار خفيف, لا تقلقوا يا أصدقاء.

كوثر: بني ياسين, بإمكانك أن تأخذ قسطاً من الراحة في غرفة..... يقاطعها ياسين: لا يا سيدتي, قلت لكم أنا بخير, أما عن سؤالكِ بشأن الحل الذي تبقى لدي فلا تقلقي. المسألة وإن طالت فإن شاء الله لن تطول أكثر من أسبوع واحد. و الآن أنا أستأذنكم .....نظر لشبر وشبير وكوثر: أعدكم بأني سأعمل على إخراج السيد عبدالرحمن, وسأجد حلاً بشأن هذا, لذا إلى اللقاء.

كوثر: ياسين, لا تبدو على ما يرام يا بني, لذا كيف ستذهب وحدك إلى منزلك؟

طه: لا تقلقي يا سيدتي, أنا سأذهب معه فهو وأنا جيران لبعضنا. وطريقنا واحد.....

(12)

ليت الماضي يعود.....لأصحح أخطائي

ولكن.....

من داخل القصر ومن خلال نافذتها العملاقة ومن خلف زجاجها اللامع ينظر حاتم الذي يضع راحتي كلتي يديه على عصاه الفخمة, إلى حديقة القصر, إلى أشجار الفواكه المرتبة على خط واحد والتي أينعت ثمارها وبدأت بالتساقط, ينظر إلى طيور الزينة بأنواعها النادرة وألوانها البهية وهي تزين سماء القصر وحديقته, إلى النهر الذي يشق أرضية الحديقة وأسماك الزينة ذات الألوان الزاهية, إلى النافورتين العملاقتين اللتان تمت المبالغة بحجميهما. ولكن لم يكن سعيدا رغم ذلك أبداً, كل ذلك لم يكن مبهجاً له, حيث كان يقول في قرارة نفسه: لا أعلم ما السر في غياب السعادة عني, هل لأن هذه الثروة العملاقة التي أعيش بين ذهبها وفضتها, وبين خدمها وحشمها ليست ملكي بالأساس؟ أم حقاً أن كل الذين يعيشون خلف جدران القصور الفخمة قد حُرّمت عليهم الابتسامة غير المصطنعة كما في القصص والروايات؟ هل حقا أن السعادة ليست بكثرة المال؟ بل حتى الكآبة قد تربعت على وجهي وما عاد يعرف ما معنى الابتسام حتى. وما زادني شفقة على نفسي حتى الخدم, نعم حتى الخدم يشفقون عليَّ كون الحزن خليلي في حياتي, حياتي الخالية من البهجة بسبب الروتين المتكرر, الخالية من الابتسام إلا الابتسامة المصطنعة عندما أتفاخر بثروتي التي هي ليست ملكي

بالأساس, حياتي الخالية من الضحكة العفوية إلا ضحكة التكبر والغرور, حقاً حياتي مثيرة للشفقة ولا ألوم الخدم عندما يبدون شفقتهم تجاهي. و الشيء الذي يزيد من بؤسي هو عندما أرى ذلك الخادم الشاب الذي يعمل في قصري الكبير قصري الفخم دائم الابتسام ودائم الابتهاج, مع أنه قد قدم لتوه ليعمل في قصري مقابل ثمن معدودة دراهمه ليعيل به أسرته. أحمق من يظن أن السعادة هي من نصيب من يمتلك المال فقط, فالسيد الذي يمتلك القصر برمته يغط في حزن جهل بسببه شيئاً اسمه السعادة. وذلك الخادم الذي يخدمني لا تكاد أن تفارق الابتسامة وجهه الضاحك.....وبصوت مرتفع قليلا: صفية أين أنت؟

جاءت صفية مسرعة حيث وقفت خلفه محنية الرأس: نعم سيدي.

حاتم وما زال ينظر إلى الحديقة من النافذة: اذهبي ونادي ذلك الشاب الذي يقتلع الأعشاب الضارة من الحديقة.

صفية: أمرك سيدي.

وبعد أن ذهبت صفية لتنادي ذلك الشاب الذي يحسده السيد حاتم على ابتسامته الدائمة قَدم الشاب ووقف خلف السيد حاتم, لأن حاتم مازال ينظر لحديقة القصر من خلال نافذته العملاقة.

الشاب محني الرأس: سيدي لقد استدعيتني.

حاتم: ما اسمك أيها الشاب؟

الشاب: أنا ادعى سامر سيدي.

حاتم: وما هو عملك هنا يا سامر؟

سامر: ليس لي عمل ثابت سيدي, فتارة أقوم بغسل سيارات القصر, أو أقوم بتنظيف الحديقة من الأوراق المتساقطة أو اقتلع الأعشاب الضارة أو.....يقاطعه حاتم: في أي حي تسكن من هذه المدينة يا سامر؟

سامر وقد قطع وعداً بأن يوبخ نفسه على ثرثرته وجوابه الذي يدل على عم اللباقة في الكلام, فقد كان يكفي أن يخبر السيد حاتم على أن عمله ليس ثابتاً فقط, ويقوم بالتوضيح عندما يُطلب منه ذلك, فلمَ هذه الثرثرة!

سامر: أنا من حي السلام يا سيدي.

حاتم وقد استدار أخيراً ليقف وجها لوجه أمام سامر حيث كان صوته مختلفاً تماماً عن صوته في بدأ الكلام: حيكم قريب لحي المعارف, أليس كذلك يا سامر؟

سامر ولأول مرة منذٌ أن عمل في هذا القصر يقف بالقرب من السيد المالك للقصر, حيث بان التوتر عليه: نعم, نعم سيدي فنحن قريبون من .....ويقاطعه حاتم مجدداً بصوته الغريب والمخيف والذي لا يبشر بخير: أخبرني هل تعرف شخصاً يدعى طه بن عابد؟

سامر وقد أصبح أمام موقفين فموقف أنه يبالغ بالإجابة, وهذا في رأيه يدل على عدم اللباقة في الكلام, والموقف الآخر أنه صديق طه فعلاً, ولكن نبرة صوت السيد حاتم ونظرته لسامر عندما سأله عن طه, ظن أن الأمور لا تبشر بخير, لذلك فإن سامراً وبسبب قلقه من سؤال السيد حاتم قال: اعتذر منك سيدي فأنا لا اعرف هذا الشخص.

حاتم: يمكنك أن تذهب لعملك.

سامر يحني رأسه ليعبر عن احترامه: عن إذنك سيدي.

حاتم وقد نادى على الخادمة صفية مجددا وطلب منها أن تخبر زوجته السيدة سمار أن تحضر لصالة الاستقبال. حيث سبقها السيد حاتم وبعد أن استقر جالساً على إحدى أرائِك صالة الاستقبال زفر زفرة يصعب تفسيرها, أهي لحزنه الدائم والمعتاد؟ أم لشيء آخر جهلها حتى كاتب الرواية نفسه؟ ولكنه قال: أعرف, أعرف أن من ينام على ثروة هي ليست من نصيبه لن تكتب له سعادة أبدا, إن السعادة الحقة هي عندما تقتنع بما لديك و أن لا تمد يدك إلى شيء هو ليس من نصيبك. يا لي من مسكين حقاً فقد ظننت أنني ما أن أضع يدي على هذه الثروة فأني سأعيش في سعادة مطلقة, ولكن أين تلك السعادة وأين تلك البهجة وأين راحة البال, كله صار وكأنه هباءً في مهب ريحٍ قد احرقت البسمة من وجهي العابس.....كان السيد حاتم شارد الذهن لدرجة أنه لم يسمع سمار التي كانت تناديه قبل أن تستقر جالسة على أريكة مقابلة لأريكته فقال: هل كنتِ تناديني يا عزيزتي؟

سمار: أين سافرت بذهنك يا سيد حاتم؟

حاتم: عزيزتي سمار, إن ابن آدم مسكين حقاً, فكلما كثرت همومه كان أكثر شروداً للذهن. فدعكِ ممّا أنا عليه من شرودٍ لذهني وأخبريني هل أخبرتِ ابنتنا ميار بأن السيد سليم قد طلب يدها لابنه سلام؟

سمار: أنا لم أخبرها بعد, ولكن ماذا إن رفضت يا عزيزي حاتم؟

حاتم وبلهجة شديدة تنم عن الإصرار الشديد, قال وقد اعتدل بجلوسه بعد أن كان متكأ: عزيزتي سمار، يجب أن تقنعيها بهذا الأمر الذي لا مناص منه.

سمار وقد أصابتها الرهبة: حسناً، حسناً يا عزيزي سأخبرها بهذا.

حاتم ولهجته الشديدة: وأنا عند العشاء سأرى ماذا قررت.

ذهبت سمار وبعد أن صعدت السلم للطابق العلوي متجهة إلى غرفة ميار تذكرت كيف أن عابداً قد أوصاها بولده طه وزوجته حليمة، فقالت: أبشر يا معشوقي سأنفذ وصيتك ولو كلفني ذلك حياتي.

ميار بعد أن سمعت باب غرفتها يُطرق: تفضل.

سمار وقد تقدمت بخطوات تحمل اليأس والإحباط إلى ميار الجالسة على سريرها والتي كانت تنتظر خبراً من والدتها: هل أرسلكِ لتخبريني بموضوع الزواج من سلام أليس كذلك؟

سمار وقد أطرقت برأسها للأرض: لقد كانت لهجته شديدة جداً، ولا أظنه سيتراجع عن الأمر يا عزيزة قلب والدتك.

ميار و عيناها قد أغرورقت بالدموع: أمي صدقيني أُفضل الموت على أن أتزوج من غير طه و.....وقاطعتها سمار بعد أن احتضنت ابنتها ميار وهما على سرير الآنسة ميار: لا يا ابنتي لا تقولي هذا أرجوكِ, وسأعمل جاهدة على أن اعمل على تزويجكِ من طه.....صمتت قليلاً ثم استطردت قائلةً: ولن يحدث ما يريده والدك, بل ولن أسمح أن يتكرر خطأي مجدداً.....لم تقصد سمار أن تتكلم بذلك الكلام الأخير, لذلك صكت على فمها بسرعة جراء كلامها الأخير الذي ضل سراً مدفوناً لعشرين سنة.....ولكن ميار تفاجئت من كلام والدتها والذي كان كلاماً مبهماً بالنسبة لها, ذلك الكلام الذي بسببه راحت تسأل والدتها عنه وعن أي خطأ قد ذكرته والدتها بعد أن تحررت من حضن والدتها لها: أمي ماذا تقصدين بأنكِ لن تسمحي بأن يتكرر خطأكِ مجدداً؟ أي خطأ تقصدين يا أمي؟

سمار وقد بان التوتر على وجهها: لا يا ابنتي, لا شيء.

ميار: أمي, بل ستخبرينني عن الخطأ الذي تقصدينه.

سمار: أن الأمر.....قاطعتها ميار بعينين يُرى من خلالهما الإصرار الشديد بمعرفة الكلام الذي تفوهت به والدتها للتو: أمي, أنا على يقين تماماً بأن هناك أمراً ما و لا أعرفه أنا, وأنا مصرة بأن تخبريني بذلك الأمر.

سمار باستسلام: حسناً, حسناً يا عزيزتي سأخبرك, ولكن عديني بأنكِ ستكتمين السر.

ميار: وهل توجد بيننا أسرار يا أمي؟ ومنذُ متى تطلبين مني أن أعدكِ على كتم السر؟ ولكن سأسامحكِ هذه المرة, لأن الأمر لا يبدو هيناً عليك, لذا أعدكِ بأن السر سيبقى دفين صدري, والآن تكلمي يا أمي أنا أسمعك.

سمار: اعلمي يا ابنتي بأني لم أتزوج والدكِ عن حب, فلم أكن أريد الزواج به أصلاً, لأني كنت أحب رجلاً آخر.

ميار وهي في اندهاش من كلام والدتها: ومن هو ذلك الرجل يا أمي؟

سمار: كنت أُحب عمك عابد رحمه الله. ولكن عابد كان يعشق فتاة أحبا بعضهما كثيراً, وغفل عني وعن مجاملاتي الكثيرة له سامحه الله. فلم يكن يرى غير تلك الفتاة حليمة والدة طه.

ميار: ما هذا الكلام يا أمي؟!!! .....ولكن لمَ تزوجتِ والدي إذاً؟

سمار: كي أكون قريبة من عمكِ عابد, أي كي يكون أمام ناظري دائما وأتغنى برؤيته ولو كان ذلك من بعيد فقط. نعم قد تكون تلك حماقة مني, ولكن بسبب الصدمة التي تلقيتها عندما تزوج عابد من حليمة لم أعد أحسن التفكير آنذاك. لذا يا ابنتي العزيزة لن اسمح لوالدك بأن يزوجكِ لشخص لا

تحبيه أنتِ, ولن أسمح له بأن يجعلك تعانين ما عانيت أنا عندما لم أتزوج الشخص الذي أحب, لأجل أنه هائم بالثراء.

ميار وهي تخلط ما بين الاندهاش من كلام والدتها وبين الفرح عندما وعدتها والدتها أنها ستعمل على أن تزوجها من الشخص الذي تحب, أي طه, وعانقت والدتها: شكراً لك يا أمي, ولكن ماذا عن بطش أبي؟ أنتِ تعلمين أنه..... تقاطعها سمار: اسمعيني يا حبيبة قلب والدتك و وحيدتها, لن تتزوجي إلا من طه وكفى, أما كيف وماذا اتركي هذا الأمر لي, ولا تشغلي نفسك بهذا الأمر, ولا تقلقي حيال أي شيء, هل هذا مفهوم يا عزيزتي؟.....ثم استطردت سمار قائلة: إن والدكِ قد أصيب بداء الغرور, فضلا عن إصابته بداء حب الثراء, وإن شاء الله لن يحصل إلا الخير.....صمتت سمار قليلاً واستطردت: وأنا على علمٍ بأنكما أنتِ و طه وبين مدة وأخرى تلتقيان في الحديقة العامة ليلاً لتريا بعضكما.

ميار باندهاشٍ كبير مصحوباً بتوتر ومحاولة نكران ما قالته والدتها سمار لها مع رشة احمرار وجنتيها: ماذا؟ ولكن يا أمي أنا....تقاطعها سمار: لا يا ابنتي لا تقلقي لا أحد يعلم بهذا غيري أنا وصفية التي أُأمنها على كل أسراري .....والآن هناك ما يجب أن أفعله.

ميار بعد أن هدأت: وما هو هذا الشيء يا أمي؟

سمار بعدما استوت واقفة وقبلت جبين ابنتها: لا تتعجلي الأمر يا ابنتي, ولتكوني على يقين بأنكِ لن تتزوجي إلا من الشخص الذي يريده قلبكِ.

جاءت صفية بعد أن نادت عليها سمار, صفية كبيرة الخدم وفي عقدها الثالث, حيث كانت محل ثقة كبيرة لـ(سمار), حيث كانت سمار هي المسؤولة عن تحسين معاش عائلتها أي صفية, وكذلك قامت بدفع كل الاجور الدراسية لأبناء الخادمة صفية: نعم يا سيدتي.

سمار: تعالي يا صفية وأغلقي الباب خلفك لو سمحتي.

صفية وهي تتقدم نحو سمار: كيف حالكِ يا عزيزتي ميار؟

ميار: أهلا بكِ يا صفية.

سمار: عزيزتي صفية, هناك أمر في غاية الأهمية وفي نفس الوقت في غاية السرية ولا أريد لأي ابن آدم غيرنا أن يعلم به.

صفية: سيدتي لو قدمتُ لكِ حياتي ثمناً لما فعلتيهِ من اجلي لن يكفي ذلك, وأنت تعرفينني جيداً, وشاهدة على هذا الكلام أيضاً. والآن أخبريني بماذا أخدمك.....

(13)

عودةٌ إلى ماضي الفراق

من أمام متجر حلويات الرجل الكبير سعدون تقف سيدة لشراء الحلوى من المتجر, وأثناء الشراء قالت بعد أن رأت صديقة لها: صوفيا! أهلا بك يا امرأة, كنت سأذهب إلى منزلك بعد أن انتهي من التسوق.

صوفيا: أهلاً بكِ يا ختام, وأراهن أن هناك أمراً في غاية الأهمية وتريدين إخباري به.

ختام: هل تتذكرين تلك السيدة الثرية رحيل؟

صوفيا وقد رفعت عينيها إلى السماء كمحاولة لتذكر شيء ما في القِدم: أين سمعت بهذا الاسم من قبل يا ترى.....أين .....أين!

ختام: ما بكِ يا امرأة, السيدة رحيل التي غادرت هذه المدينة قبل عشرين سنة, وصاحبة معمل الخياطة الذي كنا نعمل فيه آنذاك. لم أكن أعلم بأن ذاكرتكِ ضعيفة هكذا!

صوفيا وكأنها تذكرت حدثاً مهماً للغاية, وقالت بصوتٍ مرتفع قليلاً: رحيل!!!.....حيث قامت بمد حرف الياء طويلاً نسبياً ثم أكملت لتقول: هل تقصدين تلك السيدة التي قامت بتبني إليا بن كوثر؟

ختام: اخفضي صوتك أيتها الحمقاء, نعم إنها هيَّ.

صوفيا: وما الذي ذكركِ بها الآن؟

ختام وهي تضحك بصوت منخفض: منذُ ثلاثة أسابيع وقد عادت إلى هذه المدينة ومعها إليا بن السيدة كوثر وقد علمتُ أنها قامت بتسميته ياسين, وقد أصبح شاباً كبيراً ويشبه أخاه الأصغر منه شُبَّر لدرجة كبيرة. ويقطنان في الحي المجاور في حيّ المعارف.

صوفيا وفي اندهاش مصحوب برهبة عندما سمعت من صديقتها ختام ذلك الكلام وبصوت مرتفع قليلاً: ماذا تقولين! ولماذا عادت إلى هذه المدينة؟

ختام: اخفضي صوتكِ أيتها الحمقاء لمَ هذا التوتر؟ ما بكِ؟

صوفيا مجدداً وبصوت مرتفع أيضاً: ولكن.....تقاطعها ختام: ولكن ماذا يا امرأة؟ ما الذي أصابك؟ هل جننتِ؟ قلت لك اخفضي صوتك.

صاحب المتجر سعدون ينادي عليهن بضجر: أنتن أيتها السيدات.....هذا محلٌ لبيع الحلويات وليس مكانٌ للثرثرة لو سمحتنّ.

ختام بضجر من كلام سعدون: الحق ليس عليك, بل على التي تريد التسوق من متجرك المتواضع هذا.

سعدون: بل الحق على الذي أرسلكِ للتسوق, لأنكِ لا تصلحين إلا للطبخ والنفخ, والآن لو سمحتنّ انصرفنّ قبل أن ينقلب مزاجي نحو الأسوأ وأضرب أخماساً بأسداس.

وبعد انصراف السيدتين من أمام المتجر وبعد محاولات تهدئة من صوفيا لتبريد أعصاب السيدة ختام جراء غضب الأخيرة من كلام صاحب المتجر سعدون, والتي كانت ستدخل في مشاحنة كلامية مع صاحب المتجر ذاك..... قالت ختام بعد أن هدأت: وأنتِ لمَ أصابكِ التوتر عندما علمتِ بأن رحيل قد عادت إلى هذه المدينة يا عزيزتي صوفيا؟ أخبريني.

صوفيا: لا, لا شيء..... والآن تعالي معي إلى بيتي لنشرب القهوة معاً.

أثناء ذهاب السيدتين إلى منزل السيدة صوفيا التي كانت متوترة من عودة السيدة رحيل إلى هذه المدينة. وسبب توترها هو أنها قد شهدت تعرض عائلة السيد عبد الرحمن لحادث سير وذلك قبل عشرين سنة.....

عودة إلى ماضي الفراق.....

حيث رجعت صوفيا في ذاكرتها إلى عشرين سنة, أي إلى حادث قد أصاب عائلة السيد عبدالرحمن والذي تزامن مع نزهتها هي و ختام على نهر ذي جريان قوي بعض الشيء. فعندما وقع حادث للسيد عبدالرحمن والذي كان برفقته زوجته كوثر وابنهما إليا الذي كان طفلاً رضيعاً, حيث وقع لهم الحادث عندما كانوا يستقلون عربة أجرة على طريقٍ بجانب ذلك النهر, وعلى الضفة الأخرى منه. حيث ظنت كل من صوفيا وختام أن الجميع قد فارق الحياة في ذلك الحادث ولكن قطع شكهما صوت بكاء ذلك الطفل إليا، ما هي إلا لحظات حتى جاءت إلى مكان الحادث سيدة تدعى رحيل حيث

التقطت الطفل إليا والذي قُذف خارج سلته التي كان نائماً فيها بعد وقوع الحادث, ولحسن حظ إليا أنه لم يسقط في النهر واستقر على حافة النهر تماماً. حيث أسرعت رحيل بأخذ إليا إلى أقرب مشفىً لتعالجه لأنه كان مصاباً بجروحٍ سطحية بسبب سلته التي كانت تحتضنه. فقامت السيدة رحيل بتبني إليا لأنها ظنت أن والداه قد توفيا بذلك الحادث وتلك الدماء التي كانت عليهما خير دليلٍ على ذلك بالنسبة لها, فقامت بتسميته في ما بعد باسم (ياسين). في الحقيقة لم يكن إليا هو الناجي الوحيد من ذلك الحادث, فبعد مدة قصيرة من الزمن أي بعد أن أخذت السيدة رحيل إليا لتعالجه من جروحه, تمت مساعدة السيد عبدالرحمن وزوجته كوثر من قبل الأهالي الذين كانوا متواجدين في الجوار من مكان الحادث, ولكنّ المسكينين أي السيد عبدالرحمن والسيدة كوثر وبعد أن أفاقا قد ظنا أن ابنهما إليا قد سقط في النهر الجاري الذي كان محاذياً لطريق سفرهما وفقد الحياة غرقاً. وكان سبب ظنهما هذا هو أن السلة الحاضنة للطفل إليا كانت مقلوبة ومستقرة على حافة النهر, لقد رثت السيدة كوثر ابنها إليا منذُ وقت حدوث ذلك الحادث وفقده حتى هذا اليوم, كانت تحاول رثائه في الخفاء عن أبناءها كي لا يحزنوا معها, مسكينة كوثر فلم تكن تعلم أن ابنها إليا حي يرزق وقد صار شاباً وفي العقد الثاني من عمره الذي هو نفسه ياسين.....أما سبب توتر صوفيا فهو بسبب تأنيب الضمير لها وذلك لأنها لم تحرك ساكناً لمساعدة عائلة السيد عبد الرحمن بسبب أن ختام قد منعتها من ذلك بسبب غيرة الأخيرة من السيدة كوثر, وكان ضمير صوفيا يؤنبها أكثر لأنها لم تخبر السيدة كوثر بأن إليا لم

يسقط في النهر, وأن هناك سيدة تدعى رحيل قامت بمعالجته وتبنيه وقد صار شاباً وفي العقد الثاني من عمره وهو نفسه ياسين. .....انتهى.....

صوفيا وهي تأخذ رشفة من القهوة ووجها قد بان عليه غبار كآبة: ختام.

ختام: نعم يا عزيزتي ما الذي يشغل ذهنك؟ اعرف انكِ مشغولة الذهن لدرجة أنني طلبت منكِ قهوة حلوة, إلا انكِ قد صنعتِ لي قهوة مرة.

صوفيا: حقا! أنا آسفة يا عزيزتي, أرجوك سامحيني.

ختام: لا, لا تهتمي لذلك, والآن أخبريني ما الذي يشغلك؟

صوفيا: أنا أفكر بأن نخبر كوثر بالحقيقة. وأن نخبرها أن ياسين ابن السيدة رحيل هو نفسه إليا, فلماذا.....تقاطعها ختام التي غصت بقهوتها حيث بدأت تسعل بشكل هستيري متفاجئة لما تفوهت به صوفيا, أسرعت لها صوفيا بإحضار كأس من الماء, حيث قالت ختام بعد ما تجاوزت أزمتها هذه, وبصوت مرتفع: هل أنتِ مجنونة أيتها الحمقاء! هل تريدين أن تفضحينا بغبائك؟

صوفيا: ولكن لماذا؟ ما السبب؟

ختام بعد أن شربت كأساً من الماء وتحاول أن تلتقط أنفاسها وراحت تصرخ بوجه صوفيا: يا مجنونة, و أين كنت منذُ عشرين سنة مضت على الحادث

الذي أصاب عائلة كوثر؟ ثم أتعلمين لو أنك ذهبتِ لتخبريها بالحقيقة فإن السجن سيكون محطتنا التالية, هل فهمتِ ذلك؟

صوفيا: حسناً, حسناً لن أخبرها, ثم ما شئننا نحن.

ختام وقد همت بالخروج: والآن يجب أن أذهب إلى البيت وإلا فإني سأتأخر, أو أصاب بالجنون من كلامك.....ثم استطردت تقول وهي تهم بالذهاب: تريد أن تخبر كوثر تريد! فأين كنتِ منذٌ عشرين سنة مضت!..... غبية, حمقاء, غبية.....

(14)

ساعة الصفر

في منزل السيدة رحيل, وعلى طاولة اجتمع عليها كل الأصدقاء يفترش ياسين الطاولة بخريطة تخص مخفر الشرطة الذي يحتجز كل من السيد عبدالرحمن وثقيل, ياسين: حسناً يا أصدقاء, هذه هي خريطة مخفر الشرطة وهو هدفنا هذه الليلة لاقتحامه.

فارس مرتبكاً: ولكن يا ياسين هل تعلم بأن في داخل هذا المخفر والذي تريد اقتحامه يسكن فيه رجال شرطة مدججين بالسلاح وعددهم ليس بقليل؟

ياسين مبتسماً: بالطبع أعلم ذلك يا عزيزي فارس.

زهير: وأنا متأكد بأن لديك خطة لتسهل الأمر علينا يا ياسين, أليس كذلك؟

ياسين: نعم يا زهير, هو كذلك.

طه: وما هي خطتك يا ياسين؟

ياسين: حسناً يا أصدقاء, بالأمس ذهبت أنا وشُبَّر إلى طبيب شُبَّر الخاص وطلبنا منه تحضير منوم ذو مفعول متوسط لنستطيع أن ننوم به كل رجال الشرطة في المخفر هناك.

ضحك جميع الأصدقاء لشدة استغرابهم وحماسهم من كلام ياسين هذا, فقال نجاح بحماس: حتماً ستكون مهمتنا لهذه الليلة ذات طابع مسلٍ بالنسبة لنا.

سامر: ياسين, هل يمكنك أن تشرح لنا الخطة بالتفصيل.

مراد: وأرجو منك توزيع الأدوار علينا.

فراس مازحاً, بعد أن اتكأ عن كتف مراد قال: انظروا يريد من ياسين توزيع الأدوار يا جماعه, ولكنك ما زلت صغيراً لتشاركنا بهذه المهمة الخطرة يا عزيزي مراد.

مراد متجهماً: إياك أن تذكر ذلك مجددا يا فارس, ثم هل نسيت بأني قد شاركتكم في مهمة الإيقاع بثقيل؟

ياسين مبتسما: الكل سيشارك في هذه المهمة بلا استثناء يا أصدقاء, أما الخطة يا عزيزي سامر فهي كالتالي: سيكون موعد تطبيق الخطة في لحظة غروب الشمس لنتفادى أنظار الناس ولنضمن نجاح الخطة بالكامل, لقد كلفت سعدون ذلك الرجل المسن صاحب متجر الحلويات بمهمة مناسبة له ولِسنه الكبير أيضا, ليشترك معنا, فهو سينتحل شخصية بائع الشطائر متنكراً بشكلٍ جيد كي لا يتعرف عليه أحد, حيث ستكون كل الشطائر مليئة بالمنوم. وسيقوم سعدون بتوزيع الشطائر عند باب مخفر الشرطة..... يقاطعه نعيم: وذلك لنستدرج رجال الشرطة ليبتلعوا الطعم, أليس كذلك؟

ياسين: أحسنت يا عزيزي نعيم.

شُبَّر: المنوم سيبدأ مفعوله بعد خمس عشرة دقيقة, ويستمر مفعوله لمدة ساعة ونصف حسب كلام طبيبيَّ الخاص, لنضمن نجاح الخطة من دون أية مشاكل جانبية.

ياسين: مراد سيحرس الطريق الأيمن الذي يؤدي إلى مخفر الشرطة, أما آدم سيحرس الطريق الأخرى. فارس وشبير سينتظراننا عند الباب الخلفي لمخفر الشرطة, ومعهما عربة يجرها حصان استأجرتها لننقل بها (ثقيلاً) بعد أن نخرجه من الزنزانة المحتجز فيها, ومن المحتمل أن يأكل ثقيل من الشطائر التي تحتوي على المنوم.....قاطعه الجميع بالضحك.....وأعقب فارس قائلاً: البرميل ثقيل حقاً سيهلكنا بنقله وهو نائم. وأنا لا أستبعد أن لا يأكل من تلك الشطائر.

آدم: ولكن يا ياسين, عندما نخرج ثقيل من مخفر الشرطة أين ستكون وجهتنا.....؟ اعني هل سيكون هنالك مكان محدد لنسلم (ثقيل) لعصابة العقارب؟

ياسين: نعم يا عزيزي آدم, لقد جاء إليَّ أحد أفراد العصابة بالأمس وسلمني رسالة حُددَ فيها المكان الخاص الذي سنسلم فيه (ثقيل) للعصابة, ليسلمونا بدورهم الأوراق الخاصة ببراءة السيد عبدالرحمن.

نعيم: هلا أكملت شرح الخطة يا ياسين.

ياسين: حسناً, بعد عشرين دقيقة من توزيع كل الشطائر لرجال الشرطة, وإضافة عشر دقائق أخرى لضمان أن جميع من في المخفر قد نام بواسطة المنوم. سندخل أنا وزهير ونجاح وطه ونعيم وسامر إلى داخل المخفر لنأخذ (ثقيل) من هناك. والآن هل لدى أحدكم أي سؤال؟

بعد أن أبدى الجميع عن إعجابهم بالخطة وفهمهم لها, قال ياسين والتردد يعلو تعبيرات وجهه: يا شباب, لدي طلب منكم.

شُبَّر وقد شعر أن لدى ياسين كلاماً ذا جديّة: ياسين, ماذا هناك؟ قل.

ياسين: يا أصدقائي الأعزاء إن هذه الخطة ليست بالسهلة إن لم نتكاتف ونصبح جميعا يداً واحده. ولكن التكاتف لا ينفع وحده هنا, لأن القطيع قد يصيبه التيه إذا لم يكن هناك قائد يقوده, لذا هل تسمحون لي بقيادتكم هذه المرة؟ لأن الأمر له من الجديّة ما يُقلقني. ووجود مرجع واحد سيكون أفضل.

بعد أن أكمل ياسين كلامه نهض الجميع إلا شُبَّراً بسبب حالته ولزم كرسيه المتحرك, بعد أن نهض طه وزهير وسامر معبرين عن موافقتهم بأمر قيادة ياسين لهم, فقال شُبَّر: ياسين, لا أعتقد أن هناك من يمانع, أليس كذلك يا أصدقاء؟

هتف الجميع بالإيجاب, وأعقب سامر: ياسين لقد اخبرني أخي مراد بالخطة التي وضعتها للقبض على ثقيل وإخراجي من السجن, فالحق أقول لن

يستطيع أحد أن يُسيّر الخطة أفضل منك وأعتقد أن الجميع يوافقني الرأي, أليس كذلك يا أصدقاء؟

ياسين مبتسما: شكرا لك يا عزيزي سامر, و لكن مسيّر خطتنا هذه هو الله سبحانه وتعالى إن شاء الله.

هتف الجميع بالإيجاب لكلام سامر, وأعقبهم طه: عزيزي ياسين, لقد أثبتَّ درايتك وقدرتك على القيادة من قبل, لذا لا نجد أحداً بيننا غيرك يستطيع أن يقودنا لهذه المهمة الخطرة والصعبة, فاقتحام المخفر لإخراج سجين هذا شيء ليس من السهل تنفيذه, ولم نسمع عنه إلا في الروايات الخيالية.

ياسين ينهض معبراً عن شكره: شكرا لكم يا أصدقاء, وشكرا لكم ثانيةً لثقتكم هذه وأتمنى أن أكون عند حسن ظنكم, وأعدكم بأني سأفعل ما يجب عليَّ فعله من أجل إنجاح الخطة, ولن تنجح الخطة إلا بجهودكم, والله ولي التوفيق.....يمد ياسين يده وأعقب قائلاً بحماس: والآن ضعوا أيديكم على يدي ولنتعاهد بأن يشد أحدنا ظهر الآخر.

وضع الجميع أيديهم على يد ياسين وهتفوا بالإيجاب, والحماس ساد الجو الذي هم فيه.

ياسين: في بعض الأحيان قد يضطر الإنسان أن يعمل عملا خارج حدود القانون من جهة, وذلك لأجل أن يطبق القانون من جهة أخرى. وخير دليل على كلامي هذا هي قضية السيد عبدالرحمن, لأننا سنخرج ثقيل من السجن

بطريقة غير قانونية وهذا مخالف للقانون, لنثبت براءة السيد عبدالرحمن ونعيد له حريته, وأظن بأن هذا محايد للقانون. كثيراً ما يقال **"**كلمة حق يراد بها باطل**"** وكنت أتساءل هل يمكن أن يحدث العكس أي **"**كلمة باطل يراد بها حق**"** ولم أتصور بأننا سنضع خطة لننفذها و تطابق قول **"** كلمة باطل يراد بها حق **"** إن الالتزام بالقانون هو أمر سماوي, والأمر السماوي واجب على الجميع تنفيذه, وهو ليس واجباً فحسب بل هو شرف للجميع أيضا. ليسامحنا القانون هذه المرة, فالظلم مرٌ طعمه لا يُحتمل, ولن نسمح بأن يتذوق السيد عبدالرحمن طعم الظلم أكثر من هذا. فما سنفعله نحن هو لأمر نريد به تحقيق العدالة.

عندما هم الجميع بالخروج من بيت السيدة رحيل وما أن فتح ياسين الباب ليخرج أصدقاؤه, حتى وجد عند عتبة الباب السيدة حليمة والدة طه وهي منهكة ووجهها شاحب وعيناها ينبئان بأنها ستبكي بعد أن تبلِّغهم بخبر غير سار أبدا, فقال طه والمسكين قد غلب الاندهاش على صوته الذي تخلله شيء من التلعثم: ماذا هناك يا أمي**!**

حليمة: ميار.

طه: ما بها يا أمي؟ تكلمي أرجوكِ.

حليمة ولم تستطع كتمان بكاءها: عمك يريد أن يزوجها بالغصب لابن أحد أصدقائه.

طه ونيران الغضب تكاد أن تخرج من عينيه قائلاً: حاتم أيها الحقير, لقد سرقت إرثي وإرث والدتي منا, وتريد أن تسرق سعادتي أيضاً. فالحق أقول سأرتكب فيك جريمة أدخل السجن بسببها أيها الوغد.

أمسك ياسين طه الذي اندفع الأخير بسرعةٍ ليذهب إلى قصر السيد حاتم, حيث قال ياسين وهو ممسك بـ(طه) بقوة: صدقني يا طه نجوم السماء أقرب إليه من أن ينال مراده, ولكن اهدأ أرجوك.

فارس متسائلاً: ولكن من تكون ميار؟ بل وما القصة أصلاً, فليتكلم أحدكم.

سامر: أظنها ابنة السيد حاتم وهو نفسه عم طه.

بعد أن عاد الجميع إلى داخل بيت السيدة رحيل قال آدم بهمس لـ(ياسين): والآن ما العمل؟

طه وقبضتاه تشدان على بعضهما وهو محني الرأس وقد سمع كلام آدم: سنكمل مهمتنا أولاً, وبعدها سأرى ما عليّ فعله.

ياسين واضعاً باطن كفه على كتف طه حيث كان الأخير مطأطأ رأسه إلى الأرض: لا بل سنكمل مهمتنا وبعدها سنفعل المستحيل من أجل أن نعيد إرثك وإرث والدتك بل وسنعمل أيضاً على أن تكون ميار من نصيبك لا من نصيب ما يطمح له عمك حاتم. ولن تكون وحدك, ثم هل نسيت أننا للتو قد

تعاهدنا على أن نساعد بعضنا البعض؟.....ثم نادى بأعلى صوته: هل انتم معي يا أصدقاء.

ضج بيت السيدة رحيل بهتاف الجميع الذي أجاب بالإيجاب, مبدين موافقتهم لكلام ياسين.....عندها قالت السيدة رحيل والتي كانت تسند السيدة حليمة عليها لما نزل من أخبار مؤلمة على السيدة حليمة: بني ياسين أرجوكم كونوا حذرين.

ياسين أثناء ما همَّ بالذهاب وأصدقائه قال: أمي لا داعي للقلق أرجوك.....

أمام مخفر الشرطة

اجتمع كل الأصدقاء أمام مخفر الشرطة وعلى مسافة تقييهم أنظار الشرطة, ملثمين ومتحمسين ومجهزين بما يكفيهم من الثقة بأنفسهم, واللازمة لمهمتهم الخطرة, فاقتحام السجن ليس بالشيء الهيّن بل ولا يخطر حتى على الأذهان, حيث التفَّ الجميع حول ياسين فقد وجدوه القائد الحقيقي الذي يبث الحماس في نفوس الجميع, والجميع ينظر إليه بإعجاب, فكل شخص منهم يراه خير قدوة له, لأخلاقه الحسنة وطيبة قلبه ولسانه اللبق, وهناك سر في أن جميع الأصدقاء قدموه على أنفسهم وهو أنه لم يكن يفضل شخصاً على آخر. وعندما ابتلع الأُفق قرص الشمس بالكامل. وأرخى الليل أجنحته السوداء

على الأرض رويداً رويداً, معلناً أن أوانه قد آن, لتشهد قِطع الليل المظلم مهمة الأصدقاء.....ياسين: أين سعدون؟ لماذا تأخر؟.....فارس: ها هو سعدون لقد وصل.

سعدون المبالغ بالتنكر: ياسين أظن بأني سأرفع الأجر الذي اتفقنا عليه قليلاً، لأن هذا التنكر متعب.

ياسين مبتسماً: دع المهمة تنجح أولاً، ثم أخبرني عن المكافئة التي تريدها.

سعدون مقهقها: إن التعامل معك مربحٌ حقاً.

ياسين: والآن يا أصدقاء لقد حانت ساعة الصفر، مستعدون؟

الجميع: مستعدون.....يعقبهم ياسين: شُبير وفارس خذا العربة التي سننقل بها ثقيل واذهبا إلى الجهة الخلفية من المخفر وخذا موقعاً عند الباب الخلفي له وانتظرا هناك.

شُبير وفارس: عُلم.

ياسين: مراد وآدم خذا موقعيكما على الطرق التي تؤدي إلى المخفر واحرساها جيداً. وحاولا أن تمنعا كل من يريد العبور منها حتى لو التجأتما إلى استخدام الحيلة أو القوة، مفهوم؟

مراد و آدم: مفهوم.

ياسين : سعدون ، خذ عربة الشطائر, وسر بمحاذات باب مخفر الشرطة، ونادي بأعلى صوتك شطائر مجانية.

سعدون: والأجر؟

ياسين: ما به؟

سعدون: قد يرتفع قليلاً.....يعقبه ياسين: قلت لك لا بأس يا سعدون، والآن هيا انطلق في مهمتك.

سعدون: حسناً.....ولحظة وصوله إلى باب مخفر الشرطة بدأ ينادي بصوت مرتفع وأمام ومرأى مسامع من الشرطة: شطائر مجانية.....شطائر مجانية....من يأكل شطائر مجانية.....يقاطعه أحد رجال الشرطة: توقف أيها البائع, هل هذه الشطائر مجانية حقاً؟

سعدون: وماذا تسمعني أنادي عليها أيها الشرطي؟!

الشرطي بعد أن خجل وتوتر بسبب سؤاله الذي هو في غير محله: لا، لا بل تفاجئت من هذا الأمر فقط أيها البائع، فلأول مرة أرى شخصاً يبيع الشطائر بالمجان.

سعدون: نعم، نعم يا بني, أنا جديد على هذه التجارة فأحببت أن تكون افتتاحية اليوم مجاناً.....والآن ما أريده منك أن تأخذ كل الشطائر التي لدي إلى كل رفاقك الذين في المخفر, فأنتم تستحقون هذه الشطائر التي ستجعل

آخركم ينام بكل راحة بال (تقهقه سعدون).....ولم يفهم الشرطي ما قصده سعدون المتهور.

الشرطي: حسناً, في المخفر ثلاثون شرطياً و أربعة سجناء, هل معك هذا العدد من الشطائر؟

سعدون: بل معيَّ الضعف يا بني أو أكثر من ذلك, أرجوك خذها كلها.

بدأ الشرطي بنقل كل الشطائر التي كانت تحتوي على المنوم بمساعدة شرطي آخر, حتى نفدت عربة سعدون بالكامل فقال في نفسه: بالهناء والشفاء وأحلاماً سعيدة.

فقال الشرطي: شكراً لك أيها البائع.....فقال سعدون في قرارة نفسه أثناء ما هم بالذهاب: الحق ليس عليك بل على الذي عينك شرطياً هنا.

انتظر الأصدقاء عشرين دقيقة حتى تأكدوا بأن جميع رجال الشرطة قد ناموا متأثرين بالمنوم فعلا, دخل ياسين وطه وزهير ونجاح وسامر ونعيم إلى داخل المخفر ملثمين متوترين فلم يتصور أحد منهم أن يقدم ذات يوم على اقتحام المخفر أبداً. لقد زار ياسين المخفر مرتين سابقاً, مرة لزيارة سامر عندما قبض عليه الشرطة ومرة لزيارة السيد عبد الرحمن, أي انه يعرف الطريق جيداً. بعد أن أخذوا مفاتيح الزنزانة من الحارس التي كان يحرسها والذي هو الآخر كان نائما أيضا, دخلوا إلى زنزانة ثقيل حيث كان

ثقيل لسوء حظهم نائماً, بل ويغط في نوم عميق جداً حتى قال نجاح بضجر: هذا ما كنت أخشاه, والآن حقاً سنهلك عند حمل هذا الدب الثقيل.

زهير: ثقيل اسم على مسمى فعلا.

ياسين: حسناً يا أصدقاء الأفضل أن نسرع, هيا فلنحمل ثقيل ونخرج به من الباب الخلفي للمخفر.....وأثناء همهم بحمل ثقيل حتى سمع الجميع صوت شخص من داخل حجرة الزنازين يقول: ياسين هل هذا أنت. وما إن سمع الأصدقاء هذا الكلام كادت قلوبهم أن تسقط من صدورهم لشدة خوفهم فظنوا في بدأ الأمر أن هناك شرطيا لم يتناول من شطائر سعدون...

فقال ياسين مهدئاً من روعهم: لا تقلقوا يا أصدقاء فهذا السيد عبدالرحمن هو يقطن هنا أيضاً.

ياسين بعد أن ذهب إلى زنزانة السيد عبدالرحمن: كيف حالك يا سيدي.

عبد الرحمن وهو يمسك بقضبان زنزانته الحديدية: بني ياسين, ما الذي تفعلونه هنا؟ ولمَ أنت ملثم هكذا!

ياسين وهو يكشف اللثام عن وجهه: سيدي خروجك من السجن مرهون بإخراج هذا السجين المجاور لزنزانتك من هنا.

عبدالرحمن: ماذا؟! ماذا تقصد يا ياسين؟

ياسين: لا وقت للشرح الآن يا سيدي, فيجب أن نبتعد عن المدينة قدر الإمكان وبأسرع وقت ممكن بعد أن نأخذ هذا السجين من هنا, وسنشرح لك الأمر فيما بعد, والآن إلى اللقاء, ولا تنسَ أن تأكل من تلك الشطائر التي وضعنا فيها منوماً, كُلها لتنام, وكي لا تكون شاهدا على ما حدث.

انصرف ياسين بعد أن أعاد اللثام على وجهه, وقد تعاون الأصدقاء على حمل ثقيل ولكن قبل أن يخرجوا من ردهة الزنازين اعترضهم شرطي قائلاً وبصوت خشن وغليظ وهو رافع بندقيته في وجوههم: قفوا وإلا فإني لن أتردد بإطلاق النار عليكم ..... سقط ثقيل النائم من أيدي الأصدقاء على الأرض لاندهاشهم باعتراض شرطي لهم لم يحسبوا له حساباً, فقد ظنوا أن كل من في المخفر يغط في نوم لا شك فيه!.....فأردف الشرطي قائلاً وبلهجة تنم عن الإصرار الشديد: إذا ظننتم بأني سأتردد بإطلاق النار عليكم فليجرب أحدكم أن يتقدم أو يعصي أوامري.

هدأت الأنفاس, وكادت قلوب الجميع أن تخرج من صدورهم, وهم بين اليأس والأمل, مع أنهم لا يعلمون ما سبب أملهم في الخروج من محنتهم هذه. شرطي في المخفر لم يأكل من تلك الشطائر ولم ينم, وهو الآن قد أوقفهم برفع بندقيته في وجوههم! ما مصدر الأمل الذي يشعرون به الآن يا ترى؟.....هذا التساؤل كان يدور في أذهانهم.

زهير وقد جفت عروقه من الدم: ترى هل انتهى أمرنا وفشلنا بمهمتنا؟

طه والذهول أحاطه من كل جانب: والآن ماذا نفعل يا ياسين؟

ياسين وبثبات: أيها الشرطي.

الشرطي وهو يصوب ببندقيته نحو ياسين والاصدقاء قال: ماذا تريد أيها المجرم؟

ياسين: لا أريد أي شيء منك, ولكن أريد أن أخبرك بأني أتمنى لك أحلاما سعيدة!

الشرطي بعد أن رفع احد حاجبيه متسائلا عن ما كان يقصده ياسين: ماذا تقصد يا.....لم يكمل الشرطي كلامه حتى أتته ضربة من خلفه على رقبته أفقدته وعيه.

الجميع: مرحاً لك يا آدم.....يعقبهم ياسين: في وقتك المناسب يا عزيزي آدم, أحسنت.

آدم بعد أن رفع الحجر الذي ضرب به الشرطي: هذا واجبي يا أصدقائي الأعزاء, أنا والحجر هذا في خدمتكم دوماً متى ما أردتم ذلك.

ياسين: والآن فلننهِ مهمتنا بأسرع ما يمكن, فالجرة لا تسلم في كل مرة.

تحت ستار الليل المظلم يخرج الأصدقاء من الباب الخلفي للمخفر, حاملين ثقيل الذي يساوي جسده ثلاثة أشخاص من حامليه لحجمه الكبير, لحظة خروجهم من الباب إذ يأتي شُبير وفارس بالعربة لنقل ثقيل وقد كان مراد

معهم أيضا بعد أن علم أن ياسين قد أنهى الأمر مع من كان معه, وعند همهم بالذهاب تحركت العربة باتجاه الطريق التي تؤدي إلى الطريق التي تخرجهم من المدينة نظر ياسين إلى خلفه وعيناه تودعان المخفر بحزن, حيث كان هناك أمرٌ يقلقه حيال هذه المهمة الخطرة. فقال طه متسائلا: عزيزي ياسين, أظن بأن خطتنا نجحت نجاحاً باهراً, فمن كان يتصور أن ندخل المخفر بهذه الطريقة ونخرج ثقيل ومن دون أي عثرات تعترض طريقنا سوى الشرطي والذي خلصنا منه آدم, ولكن مالي أراك وكأن هناك ما يقلقك؟

ياسين وبزفرة حزن قال: اسمعوني يا إخوتي الأعزاء, لقد قمت بمناداتكم إخوتي لأن أمركم بات يهمني أكثر بعد هذه المهمة الخطرة, التي تقاسمنا مخاطرها معاً, بل المهمة السوداء التي أخاف عليكم من مما ستخلفه في نفوسكم!

زهير: ولكن ماذا تقصد يا ياسين؟ لم نفهم كلامك.

ياسين: يا أصدقائي, إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة, واقتحام المخفر ليس أمراً صائباً, ولا يفعل ذلك إلا من خرج عن القانون ولكن لم نفعل هذا الأمر الخطر إلا لأمر فيه إحقاق الحق لشخص مظلوم وهو السيد عبدالرحمن, ولكن يبقى اقتحام المخفر بعد تنويم من فيه من رجال الشرطة أمرا ليس صائباً, وأخشى عليكم أن يهون كل أمر سيء أو أمر خارج عن القانون بعد أن قمنا بهذه المهمة التي هي بالأساس خارج حدود القانون فعلاً, وأخشى أن تكون هذه خطوتنا الأولى لارتكاب ما يسيء لحدود القانون.

طه واضعاً باطن كفه على كتف ياسين: لا يا عزيزي لا تقلق حيال هذا الأمر.

ياسين يمد يده إلى أصدقائه قائلا: والآن يا أصدقاء ضعوا أيديكم على يدي ولنتعاهد على أن لا نفعل أي شيء يسيء للقانون.

وضع الجميع أيديهم على يد ياسين والعربة تسير بهم نحو مقر عصابة العقارب متعاهدين أن لا يقدموا على فعل أي شيء يسيء للقانون, فأعقب ياسين: إن من يقدم على فعل شيء سيئ مهما كان صغيراً وبسيطاً ثم لا يؤنبه ضميره على ما فعله من ذلك الأمر السيئ باعتبار أن ما فعله هو أمر بسيط ولا داعي لتأنيب الضمير, فإنه حتما سيفعل ما هو أكبر من هذا الأمر السيئ تدريجياً, ثم يزداد في أفعاله السيئة شيئا فشيئا إلى أن ينتهي به المطاف إلى مجرم محترف وربما سفاح أو كبير عصابة إجرامية أو إلى ما شابه ذلك. وكل هذا بسبب أنه قد ارتقى الدرجة الأولى من سلم اللامبالاة, لأنه قد أقدم على فعل شيء سيء ولكنه كان صغيرا ولم يستمع لتأنيب ضميره في بدأ الأمر, لأن ما فعله كان أمراً سيئاً نعم, ولكنه كان أمراً صغيرا. وهكذا ستهون عليه بقية الأمور حتماً, فحقا رحلة الإلف ميل تبدأ بخطوة واحدة و صغيرة. لذا أرجو منكم أن تنتبهوا لأنفسكم وأن تعاتبوا أنفسكم على كل أمر سيئ مهما كان صغيرا وبسيطاً وتافهاً, حتى تكونوا أنقياء من الداخل كما انتم الآن انقياء من الخارج ..... ثم طلب من زهير الذي كان يقود العربة: عزيزي زهير انعطف يميناً عند تلك الطريق.

عند وصولهم ودخولهم إلى مجمع من المنازل القديمة والمهجورة والمحطمة سمعوا شخصاً يناديهم: توقفوا, من أنتم؟ وماذا تفعلون هنا؟

ياسين من على العربة, حيث لم يعرف أين مصدر ذلك الصوت تحديداً بسبب الظلام وكثرة حطام المنازل القديمة والمهجورة: أخبر الأسود بأن ياسين وأصدقاءه قد وصلوا.

الشخص بعد أن ظهر من خلف أحد مجاميع ذلك الحطام: هو بانتظاركم الآن تفضلوا.

بعد أن دخل الأصدقاء بعربتهم إلى داخل مجمع من المنازل المحطمة بسبب ما مر عليها من غابر السنين, كان هناك عدد من عصابة العقارب يفوق عدد الأصدقاء بأربعة أضعاف, كان الأسود مستقرا على كرسيٍ بينهم واضعا قدماً على الأخرى, ترجل ياسين وتقدم نحو الأسود فقال: يا إخوتي انزلوا ثقيل من العربة لو سمحتم, وبعد أن استقر ثقيل أمام الأسود, ثقيل الذي مازال يغط بنوم عميق إذ كان المنوم الذي وضعه الأصدقاء في تلك الشطائر مازال سارِ المفعول ..... قال الأسود وهو يصفق: صدقني يا ياسين لقد أبهرتني حقاً! لم أتوقع منك هذا النجاح الباهر..... يقاطعه ياسين: لست وحدي يا أسود بل هؤلاء الأصدقاء هم من كان لهم الفضل في نجاح الخطة.....ثم أردف وقال ..... ثم إن وعد الرجال الأحرار حق عليهم الإيفاء به, وإلا فحرام أن يكونوا رجالاً خلاف ذلك. فنحن قد أوفينا بوعدنا, والآن أوفِ بوعدك لنا.

الأسود: إن الأوراق ليست معي يا ياسين.

عندما سمع ياسين هذا الكلام من الأسود انقض بسرعة على الأسود وأمسكه من طاقيته.....وأثناء انقضاض ياسين على الأسود أراد جميع عصابة العقارب مهاجمة ياسين ولكن الأسود أومأ إليهم بيده بالتوقف وألا يتدخلوا.....ياسين وهو مازال ممسكاً بالأسود من طاقيته قال و الغضب بان من عينيه: اسمع يا هذا, لقد قمتُ برمي أصدقائي إلى التهلكة باقتحامنا المخفر, من أجل أن نخرج ثقيل منه, ومن أجل أن تسلمنا الأوراق التي تثبت براءة السيد عبدالرحمن, والآن تخبرني بأن الأوراق ليست معك! أهذه هي الرجال يا كبير أكبر عصابة في هذه المدينة؟ أهذه هي المروءة يا أسود؟ أهذه هي الشهامة أيها الجبان.....الأسود وقد تحرر من قبضة ياسين وأثناء ترتيبه لسترته السوداء التي كان يرتديها قال: ياسين, عندما اقتحمتم المخفر وبعد أن خرجتم منه بعثت أحد رجالي إلى المخفر ليضع كل الأوراق التي تثبت براءة السيد عبد الرحمن عند مكتب ضابط المخفر.

ياسين: هل ما تقوله.....يقاطعه الأسود: أنا لا أكذب يا ياسين, وغداً صباحا سيخرج السيد عبدالرحمن. أما ما فعلته الآن معي بإمساكك إياي بهذه الطريقة. فدعني أخبرك بأنه لم يجرؤ أي أحد من قبل أن يقف أمامي ليتكلم معي بهذه الطريقة أو يفعل معي ما فعلته أنت للتو. ولكن شجاعتك لتهاجمني وسط كل هذا العدد الكبير من أفراد عصابتي قد أعجبتني. لذا سأكظم غيظي عنك.

ياسين وقد هم بالرحيل: اسمعني يا أسود تلك النجوم التي في السماء حتى لو اختفت يوماً عن الوجود فستخلف خلفها أثرا ليذكَّر الخلائق بها, ولا أعتقد أنك عاجز عن هذا يا عزيزي, والسلام.....بعد أن تحركت العربة التي ركب فيها ياسين وأصدقاؤه ليذهبوا إلى منازلهم نادى الأسود على ياسين قائلاً: ماذا تقصد بكلامك هذا يا ياسين؟ توقف.

لم يهتم ياسين لمناداة الأسود الذي أومأ لرجاله الذين أرادوا إيقاف العربة, حيث أصاب الأسود فضولٌ كبير كي يعرف ما الذي كان يقصده ياسين بكلامه الأخير.

عندما وصل الأصدقاء إلى مدخل المدينة توقف زهير الذي كان يقود العربة بعد أن طلب منه ياسين ذلك, كما طلب ياسين من جميع الأصدقاء أن يترجلوا من العربة. حيث وقفوا جميعا في وسط بوابة مدخل المدينة, قال ياسين الذي كان واضعا راحة كف يده على كتف طه: يا أصدقائي الأعزاء, لقد أثبتنا لبعضنا البعض في هذا اليوم أننا جديرون بالثقة بأنفسنا. وكذلك أن لا وجود للصعاب أمام تكاتفنا وتعاوننا معاً, لذا فمهمتنا القادمة هي إعادة الإرث الذي تركه السيد عابد رحمه الله إلى أخينا طه ووالدته, وهذا أمر أصبح واجباً علينا. وأنا ادعوكم بالإنابة عن صديقي طه إن لم يمانع طبعاً لحفل زفافه هو وميار.....يقاطعه الجميع بالهتاف ومباركة طه الذي سعى جاهداً من أجل حبس دموعه.....

(15)

محطة الفراق.....وفراق لم يُحسب له حساب.....

بعد أن رحبت السيدة رحيل بصديقتها القديمة صوفيا, لاحظت السيدة رحيل توتر صوفيا وتلعثم كلامها وانحناء رأسها ووضعية جلوسها, كل ذلك برهنَ لرحيل أن لدى صوفيا خبراً قد يكون غير سار لها بعض الشيء. ..... قلقت رحيل حيال ذلك الأمر فقالت: عزيزتي صوفيا, أنا أشكرك لزيارتكِ هذه لي, فالحق قد سرني ذلك. وأنا أرى أن هنالك ما تريدين أن تخبريني به, أليس كذلك؟

صوفيا وقد ازداد توترها وبان أكثر على وجهها: سيدتي, ولكن هل تعطينني الأمان؟ .... رحيل وقد أوجست بعض الخوف جراء كلام صوفيا: عزيزتي صوفيا تكلمي لقد أقلقتيني حقاً, تكلمي و لكِ مني كل الأمان.

صوفيا: في بدأ الكلام, أريد أن أسألكِ, ياسين ابن من؟

رحيل وقد توسع بؤبؤ عينيها بسبب سؤال صوفيا المفاجئ والغريب: ياسين هو ابني أنا بالطبع. ولكن لمَ هذا السؤال؟

صوفيا واغرورقت عيناها بالدموع: لا يا سيدتي أنا أعرف أن ياسين ليس ابنكِ. وأعرف أنكِ قد وجدتيه ملقىً على حافة النهر بعد أن تعرض لحادث مع عائلته قبل عشرين سنة أي عندما كان طفلا رضيعاً.....فقاطعتها رحيل

بخوف مصحوب بقلق, وقالت بعدما نهضت قائمة: صوفيا, ما الذي تتكلمين عنه أيتها المجنونة.

إن تأنيب الضمير لا يستطيع أن يتحمله البعض من البشر, ففي بدأ معاتبة الضمير لصاحبه سيمنعه من لذة النوم ثم من الأكل وبعدها سيسلبه طعم الراحة إلى أن يصلح ما عليه من ذنب, هذه رحمة من الله تعالى لذلك الإنسان الذي أنبه ضميره, فهي دائما ما تصب بصالح الإنسان, وإذا لم يصلح المذنب ذنبه وتجاوز مرارة عذاب الضمير, فسيموت قلبه, ويصبح إنساناً قاسياً..... وصوفيا خير شاهد على كلامنا, فهي لم تتحمل مرارة عذاب الضمير, فقد كانت شاهدة لمعاناة كوثر عندما فقدت ابنها وقرة عينها إليا, بعد أن ظنت كوثر أن ابنها إليا قد وقع في ذلك النهر بعد أن تعرض معهما هي وزوجها للحادث. ظنت رحيل أن كل من في الحادث قد توفيَّ ما عدا إليا التي قامت بتسميته ياسين, ومعالجته من كل الجروح التي أصابته نتيجته الحادث. رحيل حالما أخذت إليا من ذلك الحادث انتقلت به إلى مكان آخر في مدينة أخرى. وعندما عادت رحيل ومعها ياسين و الذي هو نفسه إليا. ظنت صوفيا أن ضميرها قد يقتلها إن تكتمت على الحقيقة أكثر. فقد رأت أنها ستتحرر من عذاب الضمير لها إن أخبرت رحيل بذلك. حتى أخبرت رحيل بالقصة كاملة من الألف إلى الياء, صاحب ذلك بكاء رحيل وكادت أن تعاقب صوفيا على سكوتها حتى هذا اليوم, لولا الأمان الذي أعطته لصوفيا في بدأ الكلام. غضبت وبكت رحيل, وبصوت مرتفع عاتبت

صوفيا التي تكتمت على الأمر حتى هذا اليوم. حيث قامت رحيل بطرد صوفيا من منزلها, لتبقى رحيل وحيدة في منزلها, مع البكاء, والذهول, ومع الصدمة الموجعة التي تعرضت لها لتوها. فالحق كانت ضربة قاضية لها و منعطفاً كبيراً في حياتها, وأي منعطف!

أثناء ذلك الحديث الذي دار بين صوفيا ورحيل. كان ياسين قد ذهب إلى المخفر مع كل الأصدقاء ليبارك للسيد عبدالرحمن بخروجه وبراءته من التهمة التي وجهت إليه سابقاً, والمحزن حقاً أن عائلة السيد عبدالرحمن كانت بأكملها هناك وهم لا يعلمون أن ياسين هو نفسه إليا وهو فرد من عائلتهم. دعت كوثر كل الأصدقاء الذين شاركوا بالمهمة الخطرة من أجل إخراج السيد عبدالرحمن من السجن إلى مأدبة طعام كشكر لهم, حيث كانت كوثر تنظر لـ(ياسين) بين الحين والآخر, ولكن هل كانت نظرات كوثر كنظرات شكر لـ(ياسين)؟ أم نظرات أم حنون لـ(ياسين) بالغيب؟ كانت المأدبة مصحوبة بتبادل الأحاديث والمزاح بين الأصدقاء, ساد الضحك جوهم الذي أساسه الفرح بخروج السيد عبدالرحمن. وفي نهاية اليوم وقبل ساعة على غروب الشمس واجتماع الأصدقاء في مكانهم المعتاد بطلب من ياسين أو (إليا) أي كان من الاسمين فكلاهما لشخص واحد, من أجل إيجاد حلٍ لقضية طه وهي استرجاع إرثه وإرث والدته من غاصبهم حاتم وكذلك التخطيط لهذه المهمة التي فيها مسألة حياة أو موت! لأن السيد حاتم قد أصيب بداء

حب الثراء ولا أعتقد بأنه سيتردد بفعل أي شيء من أجل إبقاء الثروة لديه, حتى لو كلفه ذلك أن يلجأ لقتل من سيواجهه في صدد هذا الأمر!.....

سامر: طه, أتعلم بأن السيد حاتم قد سألني ذات يوم إن كنت أعرفك أم لا؟

طه باستغراب: وبماذا أجبته؟

سامر: لقد رأيت منه نظرات يصعب عليَّ تفسيرها فالحق أقول كانت نظراته غريبة ولا توحي بنظرات سلام أبداً, فخشيت أن أُطرد من عملي, ومن أجل أن أُحافظ على عملي ولا أُطرد منه أجبته بأني لا أعرف أحداً بهذا الاسم مطلقاً, وحالما سمع مني ذلك أحسست بأنه اطمأن تجاهي من جديد.

ياسين: ولكن لماذا سألك أنت بالذات عن طه؟ فقد أخبرتني سابقاً بأن عدد العاملين في القصر نحو الثلاثين عاملاً, فلمَ سألك أنت بالذات؟

سامر: في الحقيقة لا اعلم.

طه وقد وضع يديه على رأسه وانحناء رأسه للأرض وقال بعد أن زفر بحزن: إن الأمر صعب, صعبٌ جداً, لا يهمني الإرث الذي تركه والدي, المهم هي ميار تلك المسكينة قد تقتل نفسها إن أُجبرت على الزواج من ابن صديق والدها.

ياسين: صعبٌ صحيح, ولكنه ليس مستحيلاً يا عزيزي طه. ولا أعتقد بأنه أكثر صعوبة من اقتحام المخفر. ولكن أخبرني من الذي أخبر والدتك بأن عمك حاتم يريد إجبار ابنته بالزواج لأحد أصدقائه؟

طه: هناك سيدة تدعى صفية كبيرة الخدم والعاملين في قصر حاتم هي من أخبرت أمي بذلك و بطلب من السيدة سمار زوجة حاتم نفسه.

نعيم: هذا يعني أن السيدة سمار معارضة لرأي حاتم, أليس كذلك؟

طه: نعم, هي معارضة لرأي حاتم. حيث أخبرتنا بأنها ليست راضية عما فعل حاتم بأخذه لثروة والدي منا. فهي التي قامت بشراء المنزل الذي نعيش فيه أنا ووالدتي الآن لنا, ولكن إن علم حاتم بالأمر فحتما لن يتردد بإيذائها.

ياسين: لقد أخبرني شُبَّر بأنك تلتقي بالآنسة ميار بين الحين والآخر, هل هذا صحيح؟

طه واحمرار وجنتاه قليلاً: نعم, صحيح.

ياسين: إذاً عن إذنك يا طه.....ياسين مخاطباً سامر: متى تذهب للعمل في القصر يا سامر؟

سامر : غداً في الصباح الباكر.

ياسين: إذاً حاول أن تخبر صفية كبيرة الخدم بأن طه سينتظر الآنسة ميار في ليلة الغد في المكان المعتاد, وأخبرها بأن أصدقاء طه سيجتمعون غداً معهما

كي يجدوا حلاً لقضيتهما, كي لا تُصِب الرهبة الآنسة ميار إن رأتنا هناك مع طه.

ثم أعقب ياسين وقال: السيدة سمار والآنسة ميار وكبيرة الخدم صفية, أعتقد بأنهنَّ سيساعداننا بإعادة الإرث لك يا عزيزي طه.

طه: ولكن ما الذي تنوي أن تفعله يا عزيزي ياسين.

ياسين: في ليلة الغد سنحاول أن نخطط من أجل قضيتك والأفضل أن يكون ذلك بوجود الآنسة ميار كونها داخل القصر. والآن يا أصدقاء سيكون اجتماعنا في ليلة الغد.

يبدُ أن هناك مهمة أخرى تنتظر الأصدقاء, مهمة ليست بالسهلة عليهم وقد تكون أكبر من مهمة اقتحام المخفر, ولكن ليس من العدل أن يأخذ حاتم أملاك أخيه عابد فالأملاك يجب أن يقبضها طه ووالدته فهي من حقهم هم فقط, فحاتم قد أصيب بداء حب الثراء و هذا الداء يجعل من صاحبه طماعاً جشعاً, فهو مستعد أن يؤذي أقرب الناس إليه من أجل أمواله, لذا فخلف كواليس هذه المهمة قد تكمن مسألة حياة أو موت, ... ياسين وهو في طريقه إلى منزله بعد أن وقع ظلام الليل. وإذا بشخص يناديه من خلفه: توقف.

يلتفت ياسين إلى من كان يطلب منه التوقف حيث قال بعد أن عرف مصدر الصوت الذي لا يبدوا غريبا عليه, حيث قال بابتسام: من؟ الأسود! أهلاً بك, هل استطيع مساعدتك بشيء؟

الأسود: نعم تستطيع مساعدتي يا ياسين.....حيث قال الأسود بعد أن أسند ظهره على أحد جدران المنازل التي كانت هناك: هل تذكر عندما قلت لي تلك النجوم التي في السماء حتى لو اختفت يوما عن الوجود فستترك خلفها أثرا ليذكَّر الخلائق بها, ولا أعتقد أنك عاجز عن هذا؟ .....ما كان قصدك بهذا الكلام الذي أثار فضولي؟

ياسين وقد أدار للأسود ظهره ليكمل الطريق لمنزله: ساترك لك هذا الأمر يا عزيزي فالأفضل أن تكتشفه بنفسك .... والآن إلى اللقاء.

الأسود وبتجهم بعد أن اعتدل بوقوفه: ياسين, صدقني عندما قلت لي ذلك الكلام لم أنم ليلتها, ولم يدخل فمي أي طعام في اليوم الذي تلاها, وتريد مني أن أعرف بنفسي ما كنت تقصد؟! لا تذهب أخبرني أرجوك.

ياسين: هل أنت مصر بأن تعرف ما كان مقصدي من كلامي؟

الأسود بعد أن هدأ: أكثر مما تتخيل يا ياسين.

ياسين وقد اقترب من الأسود حتى أصبحت المسافة بينه وبين الأسود بمقدار شِبر واحد فقط, وركز كل نظره في عينيّ الأسود ثم أغمض عينيه وابتسم

وأشبك يديه إلى صدره واسند ظهره إلى جدار كان بالقرب منه ...ثم قال بعد أن فتح عينيه ورفع رأسه إلى السماء المزدحمة بالنجوم: عزيزي يا أسود إن الإنسان وكما تعلم مقبل على شيء لا بد منه وهو الموت. فالموت هو المحطة الأخيرة لحياة الإنسان شاء أم أبى ذلك, والقبر هو ملاذ أجسادنا, وعالم الآخرة هو ملاذ أرواحنا. ولكن السؤال هو هل هذه هي نهاية الإنسان؟.....بالطبع لا, هناك شيء سيبقي الإنسان حياً وإن أخذ الموت حياته أو أخذ التراب جسده أو أخذت الآخرة روحه, وهو الفكر والعمل وكل ذلك مرتبط بأعماله الصالحة, كل ذلك سيجعل من الإنسان خالداً, حتى لو أن الموت قد سلب حياته بسبب الأعمال الصالحة. ولكن هناك ما سينقل الإنسان إلى عالم النسيان وهي أعماله الطالحة. فالإنسان يا عزيزي الأسود أكبر همة من تلك النجوم التي ستترك خلفها أثراً بعد أن تختفي فهل تعجز أن تترك أثراً يذكر الأحياء بك؟ لذا كُف عن إيذاء الناس وأصلح الأخطاء التي ارتكبتها في ماضيك, ولتبدأ بداية جديدة, واجعل هدفك هو فعل ما سيجعل من ذِكرك ضمن دائرة الخلود..... هذا ما كنت أقصده يا عزيزي الأسود.

الأسود في قرارة نفسه: من يكون هذا الشخص؟! ولماذا أشعر بأني ضعيف أمامه للغاية هكذا؟ أنا زعيم أكبر عصابة في هذه المدينة, لماذا أبدو ضعيفاً جداً أمام هذا الشخص؟ أنا قد قمت بقهر كل العصابات التي في هذه المدينة, أنا قد ترأست عصابة تكوّن عدد أفرادها من خمسمائة شخص. وقد عُدَّت من أكبر وأخطر العصابات وكل من يسمع بها يرتعد منها لما لها من شراسة.

وقد عُدَّ زعيمها الأقوى في هذه المدينة. فلماذا؟ لماذا أبدو ضعيفاً أمام هذا الشخص؟ ..... رحل الأسود من دون أي كلام مع ياسين, فقال ياسين: يا أسود ..... بعد أن توقف الأسود كالمصدوم من شيء قد أصابه..... أردف ياسين وقال: أنا وأنت سنصبح أصدقاء ذات يوم.....أكمل الأسود طريقه, وهو يجر بنفسه وكأنه قد خرج من معركة خاسرة.....فقال: لماذا أشعر بأني قد هزمت شر هزيمة؟ أنا الأسود الذي لا يقهر, هزمتني بضع كلمات من ذلك الشخص! .....

ياسين بعد أن أكمل طريقه: من؟ مراد! أهلا بك يا عزيزي, كيف حالك.

مراد حيث كان يحمل معه كيساً من الخبز وهو في طريقه إلى منزله: ياسين, هل كان ذلك الأسود؟ وما الذي كان يفعله هنا معك؟

ياسين بابتسام: لا, لا شيء يا عزيزي, فقط أخبرته بأننا سنكون أصدقاء ذات يوم, وأنا متأكد بان الأسود سيكون مختلفا عما كان عليه.....

(17)

عهد الأصدقاء

في الحديقة العامة وتحت ستار الليل الذي كسر ظلامه ضوء القمر ببدره المتوهج اجتمع الأصدقاء على مقاعد الحديقة..... وبعد أن كان ياسين جالساً نهض واقفاً لينهض الجميع معه, ليرحب بـ(طه) الذي أحظر ميار ابنة عمه التي كانت تسير على استحياء من ذلك الجمع الذي كان هناك فقال ياسين: أهلا بأخينا طه, وكذلك أهلا بأختنا والآنسة ميار.

طه: ميار هؤلاء هم أصدقائي الذين لطالما حدثتكِ عنهم, وهذا هو ياسين قائد مجموعتنا.

ميار وهي محنية الرأس وقد علا الخجل وجهها: السلام عليكم.

الجميع: وعليكم السلام.....فأعقب ياسين قائلا: أهلا بكما, تفضلا بالجلوس.

ميار بعد أن جلست: ألست أنت سامر الذي يعمل في ذلك القصر اللعين؟

سامر بابتسام: نعم يا آنسة هذا أنا.

ميار بابتسام: يبدو أن أصدقاءك ليسوا من النوع السهل يا طه.

أعقبها الجميع بضحكة خفيفة .....فأعقب ياسين: حسنا يا أختنا ميار, كيف استطعتي أن تفكري بالوقوف إلى جانبنا ضد والدك من أجل استرداد كل الحقوق التي سلبها من طه, هل يهون عليك ذلك؟ فالسيد حاتم والدك في نهاية الأمر.

ميار: اسمعني يا سيد ياسين, لو كان والدي رجلا طيبا ولم يقدم على فعل شيء سيئ, فلن أسمح لأي أحد بأن يقترب منه بسوء, ولكن أبي قد ظلم أخاه ووالد طه الذي هو نفسه عمي عابد رحمه الله, عندما ائتمنه عمي عابد على عائلته, وأبي بدوره قام بخيانته ولم يصن أمانة عمي عابد. وليس هذا فقط بل سلب كل حقوق طه ووالدته, وجعلهما يعيشان كالغرباء في هذه الدنيا, وقد هان عليه حالة ابن أخيه طه ووالدته. بل وأنا على يقين بأن يده ذات يوم ستمتد من أجل إيذاء والدتي وأنا أيضاً, بسبب طمعه وحبه المفرط للمال والثراء. بل وقد هان عليه أن يزوجني من شخص أنا لا أعرفه بل ولم يأخذ رأيي حتى.

ياسين: وهل ستساعدينا يا آنسة؟

ميار: من أجل أن أحمي طه ووالدته وبل ومن أجل أن أحمي أبي من إيذاء نفسه أيضاً, نعم سأساعدكم.

ياسين: أصغوا إلي جيدا يا أصدقاء لو سمحتم, لا أُخفي عليكم فإن هذه المهمة معقدة كثيرا ونسبة نجاحها قليلة جدا. والأسوأ من ذلك فقد تكون فيها مسألة

حياة أو موت, لأن السيد حاتم قد لا يتردد بإيذاء أي أحد يشكل تهديدا لثروته. فهل أنتم مستعدون للمخاطرة بحياتكم؟

الجميع كعادتهم بالإيجاب قد أجاب.....فأعقبت ميار: ولكن, كيف تطاوعكم أنفسكم للخوض بمثل هكذا مهمة خطرة؟! ألا تخافون على حياتكم؟! أبي قد لا يتردد بإيذائكم إذا..... يقاطعها نجاح: لا يا آنسة لن نترك أخانا طه وحده, فقد تعاهدنا على أن نتعاون جميعنا في السراء والضراء, و أن نكون سندا لبعضنا البعض .....يعقبه شُبَّر: هذا عهد الأصدقاء ولن نتراجع عنه.

طه: شكرا لكم, سأضل مدينا..... يقاطعه سامر: لا يا عزيزي طه لا تكمل أرجوك, فقد خاطرتَ بنفسك من أجل إخراجي من السجن, ألا تذكر.

يعقبه شُبير: وقد خاطرت بنفسك أيضا من أجل إخراج والدي من السجن بعد أن أثبتنا جميعا براءته.

طه: لقد كان واجبي.

يعقبه ياسين: هذه المهمة لن يشترك فيها الإخوة, أي أن مراد و شُبَّر لن يشتركا فيها.

ينتفض عليه مراد بعد أن نهض واقفا وبتجهم أبدى اعتراضه: هل استصغرتني يا ياسين؟!

زهير: لا يا عزيزي مراد فهذه مهمة خطرة, وقد .....يقاطعه مراد: وقد ماذا يا زهير؟ وقد ماذا؟

نعيم: وقد لا نعود منها أحياء يا مراد.

ياسين: على الأقل يجب أن تكون إلى جانب والدتك.

فارس: الدليل على أن ياسين لم يستصغرك هو أنني بمثل عمرك تماماً, وقد أعفاك من هذه المهمة بسبب أن والدتك قد لا يبقى لها احد.

ياسين بابتسامة مصطنعة: عزيزي مراد أرجوك تفهم موقفنا.....يقاطعه مراد: ولكننا قد تعاهدنا أن نتكاتف جميعا يا ياسين, فأين ذلك العهد؟!

ياسين: من أجل ولدتك يا عزيزي, فقد لا نعود من هذه المهمة أحياء!.....ثم أردف وقال: لقد كان لشبر الفضل الأكبر في مهامنا السابقة, وأرجو منه أن لا يعد هذا استضعافاً له بسبب حالته.

شُبَّر وبابتسامة مصطنعة: لا يا صديقي لا تفكر هكذا, يحزنني أني لن أشارك بهذه المهمة, ولكن أنا أثق بأخي شُبير فهو سينوب عني.

ميار والدموع بانت معالمها: انتم ..... انتم شجعان حقاً, هذه هي الصداقة و إلا فلا.

مراد وقد ازداد غضبا: ولكن يا ياسين..... يقاطعه ياسين: مراد أرجوك تفهم موقفنا, أرجوك, مازلنا على عهدنا ووعدنا, ولكن يكفي أن أخاك سامراً سيشاركنا في هذه المهمة.

طه: شكر الله سيعك يا مراد. ولكن..... يقاطعه مراد أيضا: ولكن أنا.....فأعقبه سامر بعد أن وضع باطن كف يده على كتف مراد: أخي مراد لا نعرف هل سنعود من هذه المهمة سالمين أم لا. لذا أرجو منك أن تصغي لنا جيدا, ولا تعترض على رأي ياسين أبداً, فقد أصاب بأن لا يُشرك الإخوة في هذه المهمة, وأرجو منك يا عزيزي أن تهتم بأمي جيداً في غيابي.

ينصرف مراد بغضبٍ تسبب بجريان دموعه مسرعاً خارج الحديقة.....فأعقب ياسين قائلا: أرجو من الله أن يوفقنا ويكتب لمهمتنا النجاح الساحق, والآن يا أصدقاء, فكما أخبرتكم فإن هذه المهمة معقدة كثيرا, فلا أعلم كيفية التخطيط لها غير أن سامراً يجب أن يحاول إدخالنا إلى داخل القصر أثناء حفلة خطوبة الآنسة ميار فنحن سنتنكر على أننا خدم في القصر كونك يا سامر أحد العاملين هناك.....وأنتِ يا آنسة ميار.

ميار: نعم يا سيد ياسين, تفضل.

ياسين: هل يمكنك أن تطلبي من والدك أن يوفر الأقنعة لكل المدعوين؟ فهكذا سيسهل الأمر لنا, وكي لا يتعرف والدكِ على طه ولا على عاملين غرباء لأننا سنتنكر أيضا, ولا تنسوا فأن الأثرياء سيرحبون بهذه الفكرة, أي ستكون

حفلة تنكرية من الطراز الأوربي. وهذه هي الخطة فقط, والآن فليودع كل منا الآخر ولتودعوا أهاليكم وداعاً قد تكون العودة إليهم بعدهُ مستحيلة. وليكن وداعكم لهم وداعاً مبهماً, أي لا تخبروهم بأنكم ماضون في هذه المهمة كي لا يعترضوا طريقكم. فالسيد حاتم ومرافقوه ليسوا وحدهم من سيتواجد في الحفل بل حتى مرافقو السيد سليم وابنه السيد سلام. إذاً فمهمتنا ليست بالسهلة يا إخوتي وأحبتي. فهدفنا هي الأوراق المزورة التي ستؤدي بالسيد حاتم إلى السجن.....

الجميع باندهاش: أوراق مزورة ؟!! ..... فأعقب طه: ماذا تقصد يا ياسين؟ أخبرني أرجوك.

ياسين: عزيزي طه إن والدك رحمه الله قد ترك خلفه ثروة كبيرة من المحتمل أنه قد ترك وصية بيّن من خلالها أنك أنت ووالدتك سترثان كل أملاكه, فكيف استطاع حاتم أن يأخذ كل الأملاك من دون تزوير أوراق الملكية, فمن المحتمل أن يكون السيد حاتم قد زور كل الأوراق, إذاً وأرجو المعذرة من الآنسة ميار فالسيد حاتم مجرم تزوير! وإذا استطعنا غدا أن نأخذ الأوراق فسنكشفه للعدالة كي تأخذ مجراها بحق السيد حاتم.

طه: ولكننا أنا ووالدتي قد حاكمناه إلى القضاء, وقالوا بأن هذه الأوراق أوراق سليمة من التزوير.

ياسين وقد اشبك أصابع يداه واسند رأسه عليها, واسند مرفقيه على ركبتيه بعد أن أحنى رأسه إلى الاسفل قال: هنالك احتمالان لهذا الأمر, الأول هو أن تكون الأوراق قد تم تزويرها بطريقة يصعب على القاضي أن يكشف التزوير فيها, والاحتمال الثاني هو أن السيد حاتم قد قام بإرشاء القاضي الذي رفعتم إليه الشكوى, فحكم لصالح السيد حاتم بالباطل, وأنا أرجح بأن هذين الاحتمالين واردان في نفس الوقت.

ميار وكأنها تذكرت أمراً مهماً ومريباً: ترى ألهذا الأمر قد منع أبي كل من في القصر بأن يدخلوا لغرفة خاصة به؟ لقد حذر حتى والدتي وأنا أيضا من الاقتراب من غرفة خاصة في القصر تخصه جداً لدرجة أنه لم يسمح حتى للخدم بان يقتربوا منها لتنظيفها!

ياسين: إذاً فنسبة احتمال أنه قد زوَّر أوراق الملكية كبيرة جداً. مرحاً لكِ يا آنسة ميار.

ميار: هب أننا لم ننجح في مهمتنا هذه لا سامح الله, ماذا بعد ذلك؟

ياسين: سنهربكما أنتِ وطه, إلى أبعد ما يمكن حتى لا تصل يد والدكِ لكما, وستتزوجان هناك, وسأجعل طه مدير أعمالي في المكان الذي سأخاذكما إليه, حتى تعيشان بحريتكما .... وهذا آخر الحلول صدقاني, ولكن سيكون كل ذلك إن بقينا أحياء.

ميار: إذاً سنهرب أنا وطه في الحال فلن أسمح لكم بالمخاطرة بحياتكم من أجل مهمة الخروج منها أحياءً شبه مستحيل.

ياسين: اسمعيني يا آنسة ميار, لقد قررنا هذا وانتهى الأمر, ولا مجال فيه للنقاش أو العدول عن هذه المهمة.

طه وقد زفر بحزن: يا الهي قد لا نخرج منها أحياءً, وإذا خرجنا منها بسلام فسأعيش بقية حياتي هارباً.

ياسين: لم يبقَ لنا سوى أمل واحد, وهو أرجو أن يكون السيد حاتم قد أخفى الأوراق المزورة في تلك الغرفة كي نجدها في حال بحثنا عنها, لذا سننقسم إلى فريقين, أنا وطه سنبحث عن تلك الأوراق في غرفة السيد حاتم الخاصة, وبقية الأصدقاء سيتخفون بين الخدم..... والآن يا أصدقاء لنقف جميعاً ولنؤدِ معاً العهد الذي اعتدنا عليه, عهد الأصدقاء, العهد الذي ربما..... ربما سيكون الأخير.

وقف الجميع وصنعوا مع شُبَّر وعربته حلقة دائرية ووضع كل منهم يده على يد ياسين الذي خطب فيهم: غداً لا نعلم أنعود جميعنا؟ أم بعضنا؟ وقد لا يعود أحد منا. لهذا وِجدَت كلمة الصداقة, فالصداقة هي الحياة. الصداقة هي الشمس الدافئة في شتاء لا يرحم برده, الصداقة هي الكنز الذي كان يبحث عنه الخيميائي, الصداقة هي النهر الجارِ للظمآن, بل هي الهواء الذي عطش دم الغريق إليه.

هتف الجميع وجرت دموع ميار وبكى شُبَّر أيضا وتعانق الجميع عناق الوداع. تشهد فيهم ياسين, ومع صوت ميار الباكية وشُبَّر كأن أشجار الحديقة بكت معهما لموقف الأصدقاء الصعب والمحيّر. هبت رياح حركت أشجار الحديقة التي كانت هناك, كأنها تريد أن تقول (لا ترحلوا, فما زلتم في ريعان شبابكم, فمن لآمالكم وأحلامكم التي قد تبقى وحيدة بدنوكم) ..... فرد عليها ياسين قائلاً (الصداقة هي منتهى آمالنا, وترابط قلوبنا هو منتهى أحلامنا) كأن مقاعد الحديقة قالت لهم (أرجوكم اجلسوا, لا ترحلوا, وابقوا ها هنا), وكأن ياسين رد عليها وقال (من المعيب أن ننقض عهد الأصدقاء, هذا العهد الذي بسببه ما زالت كلمة الصداقة أحلى من العسل), كأن أزهار الحديقة المتواجدة هناك بكت أيضاً وقالت (لا, لا ترحلوا فعطري يتغنى بعطر آصرتكم وانسجامكم, فبرحيلكم ستذبُل بتلاتي), كأن ياسين رد عليها أيضاً وقال (عهد الأصدقاء قسمنا, ووعدنا حق علينا الإيفاء به). تعانق ياسين وشُبَّر وشُبير, والمساكين لا يعلمون بأنهم أخوة فرقهم القدر وجمعهم من حيث لا يعلمون ..... ذهب الأصدقاء جميعهم ولم يبقَ في الحديقة أحد, كأن تواجدهم كان خيالاً, أو كأن تواجدهم كان مجرد وهم لا وجود له. هدأت الحديقة هدوءً غريباً, خيم عليها السكون الشديد, ولا شك بأن هذا الهدوء هو الهدوء الذي يسبق العاصفة.....

(18)

لكل تمرد نهاية .....وقد وصلت لنهاية تمردك

أحد حراس بوابة قصر السيد حاتم: ألست أنت سامر؟

سامر ومعه عربة مزينة بالإزهار تجرها فرس بيضاء: نعم أيها الحارس هذا أنا وقد أمرني السيد حاتم بنقل هذه الهدايا إلى الداخل, وهؤلاء سيساعدوننا بتنظيم الحفل, وأرجو منك أن تسمح لنا بالدخول.

الحارس وقد فتح البوابة لهم: بالطبع, بالطبع تفضلوا ..... تفضلوا.

دخل سامر الذي كان يجلس بالقرب من ياسين الذي كان يقود العربة الممتلئة بالعلب الكبيرة والمزينة والفارغة!..... وكان الأصدقاء يسيرون خلف العربة, وكانوا جميعا بزي الخدم مرتدين الأقنعة الخاصة بالحفل, حيث أن الأقنعة كانت بأمر من السيد حاتم وبطلبٍ من السيدة سمار وإصرار الآنسة ميار. أي أن الأصدقاء قد استطاعوا التسلل إلى داخل القصر.

آدم: انظروا إلى هذه الحديقة ما أكبرها وأجملها وأبهاها!

زهير: إن المحزن في الأمر, هو أن هذه الحديقة هي ملك لصديقنا طه وللأسف الشديد هي ليست من نصيبه في الوقت الحالي .

نعيم: أنت قلتها, في الوقت الحالي, وستكون من نصيبه إذا كتب لنا التوفيق في مهمتنا.

طه : شكرا لكم يا أعزائي .

نجاح: انظروا إلى طيور الزينة وإلى هذا النهر الجاري وأسماكه زاهية الألوان !..... يقاطعه سامر: لم تروا شيئاً بعد.

بعد أن دخلوا إلى القصر, حيث قاعة الحفل والحضور الكثير من الأثرياء والأغنياء حيث كانت أصوات الثرثرة والقهقهة هي السائدة في حفل الخطوبة ذاك, حيث إن قاعة الحفل كانت ذات زينة لا توصف.

فارس بهمس إلى الأصدقاء: انظروا إلى تلك المائدة, صدقوني لا اعرف أسماء بعض أصناف الطعام المتواجدة عليها, انظروا إلى كل تلك الألوان والأشكال من الطعام والحلوى والشراب.

زهير بهمس وتجهم: لا تلفت الأنظار إلينا أيها الأحمق وإلا سنُفضح.

فارس بحماس: شكرا للسيد حاتم على هذه الدعوة التي لن أنساها ما حييت أبدا.....نجاح: يبدو أن فارس سيصاب بالإغماء بسبب اندهاشه المفرط.

زهير بهمس هو الآخر: انظروا إلى كل هؤلاء الضيوف, انظروا إلى ملابسهم التي تدل على ثرائهم الفاحش.

ياسين وقد لاحظ أن طه ينظر لحاتم بغضب شديد بعد أن رآه متواجداً في قاعة الحفل أيضاً, حيث سمع ياسين زمجرة طه, فقال ياسين بعد أن أمسك يد طه: اهدأ.

سامر: ياسين, ها قد استطعت إدخالكم إلى القصر, وماذا الآن؟

ياسين بهمس: علينا إبعاد بعض الخدم المتواجدين هنا لتحلِّوا محلهم, اذهب وأخبر السيدة سمار بهذا, واطلب منها أن تبعد عدداً من الخدم مكافئ لعددكم لتحلوا محلهم, وسنذهب أنا وطه إلى الغرفة الخاصة بالسيد حاتم, لنفتش ونرى في ما إذا كانت هناك أوراق مزورة.

طه بهمس أيضا: أعتقد أن تلك هي السيدة سمار صاحبة القناع الأسود.

سامر: نعم إنها هي, وأعتقد أنها في انتظارنا الآن..... ومن بين كل الضيوف استطاع سامر أن يصل إلى السيدة سمار التي كانت تنتظرهم قرب الباب الداخلي للقصر: سيدتي.

سمار: سامر! هذا أنت؟ لقد أخبرتني ميار بأنكم ..... يقاطعها سامر: نعم يا سيدتي, ولكن ليس هنا, علينا أن نتكلم بعيدا عن أنظار الضيوف وخاصة السيد حاتم كي لا نلفت الانتباه.

سامر بصوت مرتفع إلى أصدقائه المتنكرين: أنتم أيها الخدم احضروا صناديق الهدايا الخاصة بالآنسة ميار, واتبعوني إلى الأعلى.

السيد حاتم وقد نادى لـ(طه) المتنكر بزي الخدم والذي كان يرتدي قناعا خاصاً بالحفل فجهل السيد حاتم من يكون, حيث نادى السيد حاتم طه المتنكر: أنت هناك, أيها الخادم تعال إلى هنا .....هنا هدئت الأجراس وانقطعت

الأنفاس .... أصبحت ضربات قلوب الأصدقاء أسرع من المعتاد, مد ياسين يده إلى أحد جيوبه وتحديدا إلى سكين قد أحضرها معه. وتهيأ للهجوم في حال خرجت الأمور عن مسارها المخطط لها. لم يرد طه على نداء السيد حاتم فقال السيد حاتم مجددا: أنت أيها الخادم , ما بك؟ الم تسمع؟ ..... جميع الضيوف صرفوا أنظارهم إلى ذلك المشهد الذي يحبس الأنفاس بالنسبة إلى الأصدقاء. فأعقب السيد حاتم: تعال وناولني شرابا من تلك الطاولة.

طه وقد انطلق مسرعا إلى طاولة الطعام ليحظر شرابا للسيد حاتم, ولكن كانت كل تصرفاته لا تمت لتصرفات الخادم الحقيقي بأي صلة, مما أثار استغراب السيد حاتم وكذلك كل المدعوين للحفل, حيث كانت يداه ترتجفان من شدة توتره, فقال بعد أن قدم الشراب لحاتم: تفضل.

حاتم: اخلع قناعك.

سامر يتدخل: أرجو المعذرة سيدي, فهذا الخادم جديد هنا, و.....فكرر السيد حاتم كلامه ونظرات عينيه قد زادت حدة: قلت لك اخلع قناعك.

ياسين بهمس: اسمعوني يا أصدقاء في حال خرجت الأمور عن مسارها أنا سأحاول أن آخذ السيد حاتم كرهينة أما انتم فابتعدوا عن هذا المكان بسرعة.

آدم: لا, بل سنبقى معك, لن ندعك تخاطر بحياتك وحدك.

نجاح: جميعنا سنهجم يا ياسين.

أحد حراس بوابة القصر مسرعا وبصوت منخفض, قال مكلماً السيد حاتم: سيدي لقد وصل السيد سليم مع ابنه السيد سلام.

سمار محاولة انقاذ الموقف: عزيزي اذهب ورحب بهم بسرعة, لا يجب أن تتأخر عنهم.

حاتم: حسنا سأذهب للترحيب بهم .....حاتم وقد أعاد الشراب لـ(طه): وأنت انصرف إلى عملك بسرعة.

سامر: في خدمتك دوماً سيدي.

نعيم بهمس: كاد أن يكشف أمرنا.

سامر: والآن انتم أيها الخدم أحضروا هدايا الآنسة ميار خلفي بسرعة.

عندما دخلوا إلى غرفة الآنسة ميار, وجدوا هناك بعض النسوة المشرفات على تزيين الآنسة ميار والتي ترتدي فستاناً خاصاً بحفلة الخطوبة. حيث كانت الآنسة ميار ذا وجه عابس بسبب أنها كانت مرتبكة من هذا اليوم وخوفها من أن لا يأتي طه, أو أنها كانت خائفة أن يكشف أمرهم عند قدومهم. حيث لم يتبقَ إلا بعض الإضافات الصغيرة لتصبح جاهزة للخروج إلى الضيوف في الحفل. وما أن دخل الأصدقاء و أزالوا الأقنعة عن وجوههم انبهر طه بجمال عروسته, لم تأبه ميار إلى السيدات المشرفات على تزيينها وتجهيز فستانها الخاص بالحفل وانطلقت إلى طه مسرعة وعانقته بشدة, بل

ولم تأبه إلى كل المتواجدين في غرفتها آنذاك, حيث أطرق الجميع برؤوسهم إلى الأرض.

ياسين: احم, احم..... ميار بعد أن حررت طه من قبضة يديَها, وبان الخجل على وجهها: أنا آسفة, لم أتمالك نفسي, فقد ضاق صدري وخفت ألا تأتوا وتنقذوني من جحيم اليوم, وما أن رأيت طه لم استطع السيطرة على نفسي, لذلك أرجو المعذرة حقاً.

ياسين: لا, لا عليكِ يا آنسة .... يهمس ياسين إلى السيدة سمار: أرجو منكِ يا سيدتي أن تُخرجي أولئك النسوة فلدي ما أخبرك به, ويجب أن تبقي معنا أنتِ والسيدة صفية والآنسة ميار.

سمار: أنتنَّ, أيتها السيدات, أتمنى أن تأخذنَّ استراحة صغيرة في الغرفة المجاورة, ستأخذكم السيدة صفية إليها..... سمار بهمس إلى صفية: رافقيهنَّ وتأكدي من أنهنَّ سيستقرَّنَّ في الغرفة المجاورة, وعودي بسرعة.

سمار وقد انتظرت حتى تخرج السيدات المشرفات على تجهيز فستان ميار وتزيينها, احتضنت طه ودموعها قد جرت على خديها: بني طه, لقد اشتقت إليك كثيرا, كيف حالك؟

طه: أنا بخير يا عمتي, بخير ..... وبعد أن تحرر من احتضان السيدة سمار له: هؤلاء أصدقائي وهذا ياسين وهو كبيرنا وأرجو أن تستمعي لما سيقوله جيدا.

سمار: لقد أخبرتني ميار بكل شيء وأنا والسيدة صفية عند أوامرك يا سيد ياسين.

ياسين بعد أن دخلت السيدة صفية إلى غرفة الآنسة ميار: أولاً أريد من السيدة صفية أن تسحب ستة من الخدم المتواجدين في قاعة الحفل, ليحل محلهم كل من نجاح, وزهير, وآدم, ونعيم, وشُبير, وفارس, ليكونوا قريبين من السيد حاتم, وعليكم الاستعداد لأخذ السيد سليم والسيد حاتم كرهائن, إن أحسستم بأي خطر أو رأيتم أن الخطة قد خرجت عن مسارها, أما أنا وطه سندخل إلى غرفة السيد حاتم لنفتش عن الأوراق المزورة في غرفته الخاصة والتي حدثتنا عنها الآنسة ميار, أما أنتِ يا سيدتي سمار ومع الآنسة صفية حاولا أن تغطيا على كل شيء قد يعترض سير مهمتنا.

سمار: سنبذل جهدنا.

ياسين: السيدة صفية هل يمكنكِ أن تأخذينا إلى غرفة السيد حاتم؟

صفية: بالطبع, سآخذكما إليها ..... ياسين: والآن يا إخوتي هيا انطلقوا إلى مهامكم.

بعد أن قامت السيدة صفية بوضع ستة من الأصدقاء محل ستة من الخدم الذين كانوا يخدمون الضيوف في الحفل, كان كل الأصدقاء مستعدين للانقضاض على السيد حاتم والسد سليم في حال داهمهم أي خطر. كان المكان يضج بالحضور, وتبادل الأحاديث وقهقهة الأثرياء والأغنياء.

سليم: حسنا يا سيد حاتم أعتقد أن الآنسة ميار قد تأخرت أليس كذلك؟

حاتم وقد نظر إلى سلام مازحاً: أنا أريد من صهري سلام أن يتشوق قليلا لزوجته, فهذه اللحظات التي لديه الآن هي من أجمل اللحظات في عمره. أليس كذلك يا بني سلام؟

لم يرد سلام واكتفى فقط بإحناء رأسه ..... فقال سليم مقهقهاً: كلامك عين الصواب يا سيد حاتم, وأعتقد أن ابني سلام لن يرد على كلامك, فالخجل يحول دون ذلك.

..... في الطابق العلوي وبخطوات سريعة صفية: حسناً يا سيد ياسين هذه هي غرفة السيد حاتم, ولكن أعتقد بأنها مقفلة.

ياسين: أنتِ اذهبي الآن إلى عملكِ يا سيدة صفية, سنحاول أن نفتحها.

صفية بعد أن همت بالذهاب: أتمنى لكم النجاح بمهمتكما..... يوقفها ياسين: توقفي لحظة من فضلك يا سيدتي.

صفية: ماذا هناك يا سيد ياسين؟

ياسين: أرجو المعذرة, ولكن هل لديكِ مشبك شعر؟

صفية وقد احمرَّت وجنتاها: نعم, ولكن ما تريد أن تصنع به؟

ياسين: سنحاول أن نفتح قفل الباب بواسطته, ولعلنا ننجح بهذا.

تُخرج صفية إحدى المشابك المثبتة بشعرها: خذ تفضل.....والآن هل تحتاج لشيء آخر.

ياسين بعد أن اخذ المشبك: شكرا لكِ, يمكنكِ الذهاب الآن يا سيدتي.

..... في الطابق السفلي في قاعة الحفل حيث الموسيقى وازدياد الضجيج في القاعة بسبب ثرثرة الحضور المستمرة مع قهقهتهم التي يريدون من خلالها أن يبينوا لعضهم البعض كم هم أثرياء, زهير بين الحاضرين في الحفل يهمس لنجاح: هل سمعت ما قاله حاتم؟

نجاح بهمس: نعم, يريد أن يعطي بعض المزارع والمعامل والتي هي ملك لصديقنا المسكين طه كهدية لسلام بن السيد سليم, بمناسبة أن الأخير سيكون صهره بعد أيام قلائل وقد ذكرني هذا بوعد بلفور حقاً. ولكن والحق أقول نجوم السماء أقرب إليه من أن يتحقق ذلك.

فارس يتدخل بهمس أيضا وبحماس: انظرا, إلى تلك الفتاة الجالسة هناك, وانظرا إلى جمالها المبهر, والى ثرائها الفاحش. وانظرا إلى حقيبتها وساعة يدها وقلادتها وقرطيها, كل ذلك يدل على ثرائها.

نجاح مازحاً: لا تفكر بالارتباط بها, فلو قمت ببيع أهلك فلن تستطيع أن تحصل على مهرها.

فارس وهو يسخر من كلام نجاح مقهقهاً قهقهة ساخرة بهمس: كم أنت مضحك يا نجاح, لحظة من فضلك لأموت من الضحك.....أحمق.

زهير: أنا قلق حيال أمر ياسين و طه, ترى أين هما الآن.

آدم: أرجوكم حاولوا أن لا تجتمعوا بين الحين والآخر كي لا تثيروا الريبة عند السيد حاتم أو أحد حراسة.

زهير: آدم! لقد أتيت بوقتك يا صديقي, أنا قلق على ياسين وطه هل يمكنك أن تذهب إليهم بسرعة كي تأتي بخبرهما إلينا؟

آدم: ولكن ..... نجاح لا تقلق سنحاول أن نسد النقص الحاصل بين الخدم المتواجدين هنا.

آدم: سأذهب, ولن أتأخر عليكم.

نعيم يتدخل فجأة أيضا: إن مراد هنا.

جميع الأصدقاء باندهاش مما قاله نعيم, فقال زهير: ولكن ألم نطلب منه أن لا يأتي معنا بهذه المهمة الخطرة؟

نجاح: و أين هو الآن؟

نعيم: شُبير يحاول إقناعه بان يذهب من هنا ولا أعتقد أنه سيفلح بذلك, فقد كان مراد مصرا على أن يخوض معنا غمار وخطورة هذه المهمة.

نجاح وقد رأى سامراً يومأ إليه بشيء, فقال: إن سامر يطلب منا أن لا نجتمع كي لا نثير أي شكوك.

.....في الطابق العلوي وبعد محاولات متبادلة بين ياسين و طه لفتح باب غرفة السيد حاتم, حتى استطاع طه أخيراً فتح باب غرفة السيد حاتم الخاصة, بمشبك الشعر الذي أخذاه من السيدة صفية, ياسين: يبدو أن آدم قد جلب الخير معه, لذا فُتح الباب لنا بقدومه.

آدم: لقد قلقنا عليكم.

طه: لا بأس يا عزيزي آدم, لقد فتح الباب بعد عناء طويل.

ياسين: كيف هي الأحوال في الحفل؟ هل كل شيء على ما يرام؟

آدم: كل شيء على ما يرام حتى الآن, وأتمنى أن تستمر الأحوال هكذا إلى أن ننجز مهمتنا على أتم وجه.

ياسين: نحن سندخل الآن إلى الغرفة كي نقلبها رأساً على عقب, حتى نجد الأوراق التي نبحث عنها.

آدم: رافقتكما السلامة, والآن أنا يجب أن أذهب إلى الحفل إلى اللقاء.

بعد أن دخل ياسين و طه إلى غرفة حاتم الخاصة, وجدا الغرفة ذات رفوف مصنوعة من الخشب ذي الجودة العالية, وكانت تحتوي على الكتب والملفات

التي تخص السيد حاتم, فضلا عن أن الغرفة كانت مرتبة ترتيبا جيدا, طه: والآن من أين سنبدأ البحث يا ياسين؟

ياسين: أنت فتش في تلك الرفوف, وأنا سأذهب إلى الأخرى.

.....في الطابق الأرضي, في قاعة الحفل تنزل ميار بفستانها الوردي, بعد أن ألحت عليها والدتها وطلبت منها أن تصبر إلى أن ينجح طه وأصدقاؤه بمهمتهم الخطرة. حيَّ جميع الحاضرين في الحفل الآنسة ميار وأبدوا إعجابهم بجمالها حيث كانت الأخيرة ذا وجه عابس, تقدم إليها السيد سلام ولكنها تجاهلته واتجهت إلى مقعدها الخاص ..... فقال السيد سليم: يبدو أن كنتي لم تتعرف على زوجها بسبب قناعه. ..... ذهب السيد سلام ليجلس إلى جانب ميار فقال: كيف حالكِ يا آنسة ميار؟.....وبعد أن تجاهلته ميار مجددا, صعق لذلك ولزم الصمت. فقال حاتم مخاطبا الفرقة الموسيقية: اعزفوا الموسيقى التي أعلمتكم بها..... لقد رأى السيد حاتم آدم وهو ينزل من الطابق العلوي. حيث استغرب ذلك, وكان سبب استغرابه هو أن الخدم يجب أن يلزموا القاعة الخاصة بالحفل فقط, وقد راقبت عينا السيد حاتم آدم جيداً إلى أن انتهى به الأمر بين الحاضرين في الحفل, حيث ارتاب حيال خادم نزل من الطابق العلوي, وقد ازداد ريبة أكثر عندما رأى خمسة آخرين من الخدم وقد تجمهروا حول آدم, فذهب حاتم إلى حارسه الذي يثق به جيدا وهو كبير الحرس وطلب منه القدوم معه وقد صعد إلى الطابق العلوي خلسة كي لا يراه أحد, سار السيد حاتم وكبير الحرس بخطوات مسرعة إلى أن

وصلا إلى غرفته الخاصة والتي قد فتحها أحدهم. حيث رأى ابن أخيه طه ومعه شخص آخر يفتشان بين الرفوف بين ملفاتها وكتبها حيث أيقن السيد حاتم تماماً أن طه يبحث عن الأوراق المزورة. عاد السيد حاتم مع حارسه إلى الحفل, حيث جمع عدداً من الحراس مسلحين بمسدسات تحت ملابسهم. إلى أن قاموا بجمع كل الأصدقاء واحداً تلوا الآخر.

..... في غرفة حاتم الخاصة جدا, يفتش ياسين بين الرفوف: يا إلهي أين خبأ حاتم تلك الأوراق؟

طه: ترى هل خبأها في هذه الغرفة حقا؟

ياسين: أنا متأكد من أنه قد خبأها هنا, في مكان ما.

صوت غليظ وذو نبرة حادة من خلفهم يقول: ارفعا أيديكما إلى الأعلى.

طه وقد استدار ليرى شخصاً يحمل مسدساً وقد وجهه نحوهما تماماً: حاتم!

حاتم: لقد كنتُ أبحث عن حجة كي أقتلك من خلالها يا طه, لأتخلص من القلق الذي تسببه لي كل يوم, واليوم ها قد عثرت عليها.

طه: أتيت لأخذ حقي وحق والدتي منك يا حاتم.

حاتم: ولكن هناك قانون يقول إن البقاء للأقوى, حتى لو كان هناك حقٌ قد سُلب منك, فيجب أن تأخذه بالقوة يا طه.

ياسين: بل إن البقاء للحق يا حاتم, إن قانون البقاء للأقوى مكانه هناك داخل الغابات, وبين الوحوش الضارية.

حاتم وما زال مسدسه موجهاً نحو ياسين وطه: اسكت أنت, لم أكلمك أيها اللص.

طه بغضب وبصوت مرتفع: بل أنت اللص يا حاتم, أنت الذي خنت أمانة والدي, وسرقت الإرث الذي تركه لي ولوالدتي, أنت اللص يا حاتم.

حاتم بصوت مرتفع وبغضب: أتريد مني أن أترك كل هذه الثروة بيد شخص مثلك, لا يعرف كيف يديرها. ثروة والدك تحتاج إلى من يجعلها تكبر شيئاً فشيئاً, تحتاج إلى من يستثمر أموالها, فأنت لا تملك أدنى خبرة لإدارة هذه الثروة.

ياسين: يبدو انك مريض يا حاتم, ونقاش شخص مثلك لا يجدي نفعاً, بل النقاش مع شخص مثلك كمثل إعطاء أدوية لشخص ميت.

حاتم مخاطباً الحراس: خذوهما إلى الفناء الخلفي واقتلوهم واحدا تلو الآخر, ولا تنسوا أن تقتلوا طه أولاً.

كبير الحراس: سيدي أحد حراس البوابة قال بأن هناك شخصاً يرتدي زي العاملين في القصر وقد قام بأخذ حصانٍ من أحصنة القصر وخرج مسرعاً من القصر ولم يستطع الحراس اللحاق به.

حاتم: سنبحث في أمره فيما بعد.

تم تقييد يدا كل من ياسين وطه وتم إخراجهما من الباب الخلفي للقصر, حيث وجدا كل الأصدقاء هناك مقيدي الأيدي أيضاً وحولهم رجال حاتم, فقال كبير الحراس باستخفاف: حسناً, من يريد أن يموت أولاً بعد طه؟

ياسين: اسمعوني يا شباب, رغم أننا لم ننجح بمهمتنا, إلا أننا لم نخسر, فهذه الحبال التي سنموت ونحن مقيدون بها لهي شرف لنا لأننا أردنا أن نعيد الحق لأصحابه, لذلك فهذا الموت هو موت الشرف, ظاهره فوز للعدو, وباطنه للحق انتصار. قد ظن حاتم أن هذه هي نهاية طه, ولكنه نسي أن هذه هي بداية طه. قد يقتلنا حاتم مرة واحدة هذا اليوم, ولكنه سيموت ألف مرة كل يوم, لذا فهل مازلتم على عهدكم؟

الجميع: نحن على العهد .....فأعقب زهير: ياسين, نحن على العهد ولو قتلنا ألف مرة ..... فارس: بل إن زهيراً يتكلم عن نفسه يا ياسين وهو لا يمثلني.

الجميع باندهاش, فقال نعيم: فارس, ماذا تقول يا صديقي؟

فارس: نعم, لقد قال زهير نحن على عهدنا ولو قتلنا ألف مرة, ولكن أنا ما زلت على العهد ولو قتلوني مئة ألف مرة ..... أعقبه الجميع بالضحك ..... فقال كبير الحراس: العجب منكم, انتم على أبواب الموت وتضحكون!

ياسين: لسنا على أبواب الموت يا هذا, بل نحن عل أبواب الاستيقاظ, فبعد الموت ستبدأ حياتنا فعلا.

كبير الحراس بصوت مرتفع: أجلسوا كل واحد منهم على ركبتيه واجعلوهم على خط واحد, وانتظروني حتى أعود لأرى ما رأي السيد حاتم الأخير بهم.

ياسين بهمس: يا أخوتي الأعزاء, لقد سمعت كبير الحراس قد قال لحاتم بأن شخصاً ما ذا زي كزي العاملين في القصر قد هرب من القصر ولم يستطع أحد اللحاق به بعد أن أخذ حصاناً من القصر, فهل لديكم علم بمن يكون؟

الجميع وقد بانت على وجوههم الفرحة ....فقال نعيم: هذا رائع.

ياسين: هل تعرفون من يكون يا أصدقاء؟

فارس: إنه مراد يا ياسين. لقد تسلل إلى القصر خلفنا, ومن دون علمنا أيضا.

..... داخل قاعة الحفل, سلام الجالس قرب ميار على نفس الطاولة المزينة بأجمل الزهور, وقد تكلم بعصبية بقرارة نفسه: مالِ هذه الفتاة تتجاهلني باستمرار!..... فقال لها: ميار هل أنت منزعجة من شيء ما؟

اكتفت ميار بالصمت مجدداً, بل ولم تكترث له أبداً, ولم تنظر له أبداً ..... إلى أن رأت صفية أتت نحوها مسرعة شاحبة الوجه فهمست صفية بإذن ميار: آنستي إن السيد حاتم قد أمسك جميع أصدقاء السيد طه.

ميار وقد جذبت انتباه الحاضرين بصوتها المرتفع والذي ينم عن القلق والاندهاش: ماذا قلتِ يا صفية؟ ..... وقفت ميار عندما رأت السيد حاتم قد دخل قاعة الحفل مجدداً, فقالت بأعلى صوتها سمعه كل الحاضرين, وبسبب ذلك حتى الفرقة الموسيقية توقفت عن العزف: ليشهد عليَّ كل الحاضر هنا, أنا أفضل أن أموت مئة ألف مرة على أن أتزوج من سلام بن السيد سليم, وهذا قطعاً آخر كلام لدي. والآن فليتفضل كل من السيد سليم وابنه السيد سلام وليخرجا بلا مطرود خارج القصر فلا حفل خطوبة ولا هم يحزنون.

اندهش كل الحاضرين مما سمعوه لتوهم وقاموا بنزع أقنعتهم وبدؤا بمراقبة ما سيجري من أحداث. صعق حاتم, وكان ينظر لميار وعيناه مفتوحتان وفمه كذلك مفتوح بشكل أكبر من العادة لشدة اندهاشه وصدمته مما رأت عيناه وسمعت أُذناه. حيث تجمد بسبب المشهد المؤلم بالنسبة له والذي حدث أمام عينيه .....عندها قال سليم والذي قام برمي كأس العصير من يده نحو الأرض وأمام السيد حاتم: حاتم, هذه إهانة لي لا تغتفر, ولن أُمررها من دون حساب. هيا بنا يا سلام, فلا مكان لنا هنا, ولا يربطنا بحاتم شيء بعد الآن.....خرج الاثنان بعد أن قاما برمي أقنعتهما أمام حاتم.

حاتم: سليم, أُأكد لك إن الأمور قد خرجت عن سيطرتي, فما حدث أمامك الآن هو نتاج تهور ميار, وسأصلح الأمر أعدك بذلك.

خرج سليم مع ابنه سلام غاضبين, ينظر حاتم إلى ميار بعينين غاضبتين, ووجه عابس, وقبضتا يديه ترتجفان بسبب شدة غضبه, عندها قال بعد أن أشار إلى ميار بسبابة يده: ستقتلين يا ميار, أعدكِ بذلك, ستسجنين بين أربعة جدران إلى أن تموتي وحيدة..... كانت ميار تقول بقرارة نفسها: ما هذا؟ ينبغي أن يصيبني الرعب من كلام والدي هذا, فلمَ لم أخف من تهديده ونظرات عينيه التي تنم عن غضبه الشديد حتى, أنا التي أخاف حتى من ظل أبي عندما يغضب , فلمَ لم أخف منه هذه المرة؟! ..غريب ...غريب حقاً!

حاتم ينادي على حراسه: خذوا ميار اللعينة إلى غرفتها واحبسوها هناك واحرسوا غرفتها جيداً ولا تدعوها تخرج منها أبداً, وكذلك أخرجوا كل الحاضرين من هذا الحفل اللعين, فلقد انتهى الحفل بخسارة حاتم, نعم لقد انتهى الحفل بخسارة حاتم, خسارة لم تخطر على البال ولا على الخاطر.

كبير الحراس بهمس: سيدي, لقد جمعنا كل المتسللين إلى الحفل في الفناء الخلفي للقصر, ماذا تأمرنا أن نفعل بهم؟

حاتم بهمس أيضا: اقتلوهم جميعاً, ولا تنسَ أن تقتلوا طه أولاً, أولم آمرك بقتلهم جميعاً أيها الأحمق.

كبير الحراس: نعم يا سيدي ولكن ظننت أن من الأفضل أن آخذ رأيك الأخير فيهم, حسنا, كما تريد يا سيدي.

بعد أن ذهب كبير الحراس, تقدم أحد الحاضرين للسيد حاتم ليخفف عنه واسمه حسّان وهو المدير العام لشرطة المدينة: سيد حاتم أرجو أن تهدأ قليلا, فكل شيء يمكن إصلاحه في نهاية الأمر.

حاتم وقد جلس على إحدى مقاعد صالة الحفل: كيف أهدأ يا حسّان؟ كيف أهدأ وابنتي قدمت لي إهانة ليس كمثلها إهانة.

..... في الفناء الخلفي, كبير الحراس: لقد جاء الأمر بقتلكم جميعاً, هيا استعدوا لوداع الدنيا.

ارتبك الجميع .....زهير: يا إلهي.

طه: أنا آسف يا أصدقاء فأنا من أقحمكم بهذا الأمر الخطير.

شُبير: لا تقل هذا يا صديقي, فإن لم نساعد بعضنا البعض, فصداقتنا ليست صداقة حقيقية, فالصداقة الحقة قد وجدت لمثل هكذا مواقف.

ياسين: اسمعني يا هذا, ليس لحاتم الحق بأن يقتلنا. فما فعلناه هو من أجل أن نسترد حق صديقنا طه, وهذا لا يعطيكم الحق بقتلنا.

كبير الحراس ساخراً: يبدو أن أحدهم قد خاف من الموت بعد أن قال إن حياتنا ستبدأ بموتنا.

ياسين: لا يا هذا, لست خائفاً, بل إن الذي يجب عليه أن يخاف هو أنت.

كبير الحرس: ولمَ يجب أن أخاف أنا؟ ماذا تقصد بكلامك؟

ياسين: أنظر حولك, كل هؤلاء الذين حولك من الحراس والذين يأتمرون بأمرك, ذات يوم قد يقتلك أحدهم أو بعض منهم إن لم يكن جميعهم بأمر من سيدك. فهذه هي الدنيا, فبعد أن يستغني السيد حاتم عن خدماتك, سيرسل أحد هؤلاء الرجال الذين معك لقتلك, ويحل محلك.

كبير الحراس بغضب وتوتر: أنت أيها الأحمق. لقد ثرثرت بما فيه الكفاية, وسأعصي أوامر السيد حاتم هذه المرة, وسأقتلك قبل صديقك طه.

طه: أيها الحارس أرجوك لا تفعل واقتلني أنا أولاً .....ثم تبعه جميع الأصدقاء أيضاً, فقد كان كل منهم يريد أن يموت قبل الآخر, فملأت أصواتهم أرجاء الفناء الخلفي. إلى أن قاطعهم كبير الحراس برصاصة أطلقها في الهواء. كبير الحراس: ما هذا, ما هذا يا إلهي, أول مرة في حياتي أرى مجموعة من الفتيان كل واحد منهم يفضل الموت قبل الآخر.....فقام كبير الحراس بتصويب مسدسه نحو رأس ياسين أولاً, حيث وضع فوهة مسدسه على جبين ياسين, وجميع الأصدقاء ينادون بصوت مرتفع وبعيون دامعة: ياسين.....فقال كبير الحراس بعد أن وضع مسدسه على جبين ياسين: الوداع يا ..... لم يكمل كبير الحرس كلامه حتى سقط مسدسه من يده التي سالت منها الدماء. ثم التفت كبير الحرس إلى أعلى السور الذي يحيط بالقصر في فنائه الخلفي ليرى شخصاً ذا رداء أسود واقفا على السور بثبات وبيده مسدس قد خرج منه دخان الرصاصة التي أطلقها نحو يد كبير

الحرس, حيث كان كل سور القصر ممتلأً برجال توزعوا على جانبي صاحب الرداء الأسود. فقال كبير الحراس الذي أمسك يده والتي سالت منها الدماء بيده الأخرى والسليمة ومحني الظهر بسبب شدة ألمه: من أنت يا هذا؟

فقال ياسين بذهول وفرح: الأسود!

فصاح الأسود برجاله بعد أن أشار نحوَ رجال حاتم بعصاه السوداء: هيا اهجموا عليهم ولا تتركوا أي احد منهم دون أن تطرحوه أرضاً, وإذا اضطررتم اقتلوهم جميعاً .....حدثت معركة بين رجال الأسود و بين رجال حاتم. ثم نزل مراد من أعلى سور القصر وأسرع ليفك وثاق جميع أصدقائه. ثم انضم الأصدقاء إلى المعركة التي انتهت بالقبض على جميع رجال حاتم وأسرهم جميعا.

ياسين بعد أن عانق مراد: كنت أعلم بأنك ستأتي.

طه مستدركاً: لهذا قمتَ بتأخير كبير الحرس من خلال إلهائه بالكلام الأخير الذي جرى بينك وبينه!

تقدمَ ياسين نحو الأسود مبتسماً إلى أن أصبحت المسافة بينه وبين الأسود شبراً واحداً, فقال: أتذكُر عندما قلت لك أننا سنصبح أصدقاءاً ذات يوم؟

الأسود: نعم أذكر ذلك, وتمنيت أن يأتي ذلك اليوم فعلاً, وها قد أتى.

تعانق كل من ياسين والأسود حيث شعر الأخير بعد أن أغمض عينيه بروحية غريبة بهذا العناق, حيث علم أن سبب هذه الروحية هو أن مبدأ الإنسانية قد نبض بداخله, فقد كان قاسي القلب ولا يعرف شيئاً غير الحياة الإجرامية, أما الآن فقد تعلم من ياسين كيف سيكون إنساناً ويسخِّر حياته للإنسانية حيث قال ياسين: سيكون بيننا كلام طويل حديثه, والآن هناك ما عليَّ فعله.

الأسود: وما هو؟

ياسين: يا أصدقاء هيا تعالوا معي, وكذلك أنت يا أسود.

ذهب الأسود برفقة الأصدقاء وقد دخل معهم بعض من رجال الأسود للحماية بأمر من الأسود. حيث دخلوا من الباب الخلفي للقصر الداخلي والذي يطل على الفناء الخلفي, يقاتلون كل من يعترض طريقهم من رجال حاتم. إلى أن استقروا عند الصالة الخاصة بالحفل. فصاح ياسين في كل الحاضرين الذين كادوا أن يخرجوا من صالة الحفل: توقفوا لو سمحتم أيها السادة..... بعد أن توقف كل الحاضرين, ووقف حاتم مندهشاً, فقد ظن أن كبير حراسه قام بتصفيتهم جميعاً. قال ياسين: أيها السادة, هناك ما يجب أن تعرفوه, وهو أن حاتم هذا الذي أمامكم ليس أكثر من لص..... عندما سمع الحاضرون هذا الكلام دار بينهم ضجيج من التمتمة, وألف سؤال وسؤال, عن ما يقصده ذلك الشاب الذي طلب منهم التوقف هو نفسه (ياسين)..... استطرد ياسين ليكمل: لا أعلم من أين ابدأ الكلام, ولكن هل تعلمون لولا هذا الشهم الذي

ربما جميعكم قد سمع عنه والذي يدعى الأسود لكنا ميتين؟..... قد أنقذنا من رجال حاتم الذين أرادوا قتلنا في الفناء الخلفي لقصره ..... دار ضجيج آخر بين الحاضرين, ثم تقدم حسّان المدير العام لشرطة المدينة, ليسأل حاتم: حاتم هل كلام ذلك الشاب صحيح؟

اكتفى حاتم بالصمت لشدة اندهاشه وارتباكه وتوتره, بل ولخوفه أيضاً..... يتقدم ياسين ليكمل كلامه: ليس هذا فقط أيها السادة, هل تعلمون أن لحاتم أخا كان يدعى عابد أم لا؟

حسّان: نعم يا بني نعلم هذا, وقد توفي منذُ زمن.

ياسين: ولكن أين ذهبت ثروة السيد عابد يا تُرى؟ فكلكم تعلمون أن السيد عابد رحمه الله له ثروة كبيرة.

أحد الحاضرين ويدعى هُمام: اعتقد أنها قد ذهبت إلى زوجته وكذلك ولده الذي يدعى..... يدعى ..... ما كان اسمه يا ترى؟

يتقدم طه: يدعى طه, أليس كذلك يا سيدي؟

هُمام: نعم , نعم يدعى طه؟

طه: أنا هو طه بن السيد عابد.

تفاجئ الحضور جميعهم, ووجهوا نظراتهم الحادة إلى حاتم الذي بقي في حيرة من أمرة. .....ياسين: لا أيها السادة, إن السيد حاتم قد قام بسرقة كل أملاك السيد عابد التي تركها لابنه طه وزوجته. ولم يُبقي لهما أي شيء.

حاتم بغضب: لا, هذا كذب وافتراء, كل ما قالاه هذان الاثنان كذب .....يقاطعه حسّان: أرجو أن تهدأ يا سيد حاتم, وبصفتي المدير العام لشرطة هذه المدينة أريد أن افتح تحقيقاً بشان هذه القضية, والتحقيق قد بدأ الآن وهنا, فإن كان هذان الشابان كاذبين ويريدان الافتراء عليك سألقي القبض عليهما بعد أن ننهي التحقيق, إن كانا يفتريان عليك كما تقول فلا داعي للخوف أبداً.

بعد أن دار ضجيج آخر أيضا بين الحاضرين, بين مصدقٍ لما قاله ياسين وبين متردد لذلك: قال حسّان مخاطباً كل الحاضرين: أرجو من الجميع أن يلزم الصمت أثناء التحقيق..... ثم يحوّل نظره لـ(ياسين) وطه قائلاً: ولكن لمَ كان السيد حاتم يريد قتلكم يا بني؟ تكلم.

ياسين: لأن طه وأنا كنا نبحث عن أوراق مزورة في غرفة خاصة بـ(حاتم) أثناء انشغاله بحفل الخطوبة هذا, كنا نبحث عن تلك الأوراق المزوّرة والباطلة والتي تثبت أن الأملاك التي يمتلكها حاتم كلها ملك له وليس لـ(طه).

حاتم بارتباك وتوتر وبصوت مرتفع قليلاً: هل تريد أن تصدقهم يا حسّان وتكذبني؟

حسّان: لا يا سيد حاتم, من أولويات وظيفتي هي أن لا أُكذِّب أي أحد لديه دليل يثبت صحة كلامه. ثم إذا كان هذان الشابان كاذبين, فممَ خوفك هذا؟

طه: قبل وفاة والدي السيد عابد رحمه الله, حول كل الأملاك التي يملكها باسمي وباسم والدتي أيضاً. إذاً كيف استطاع حاتم أن يأخذ كل شيء من دون تزوير؟

حسّان: ولكن هذا كلام خطير جداً يا بني, ثم هل لديكما دليل يثبت صحة ما تقولانه؟ أجيبا لو سمحتما.

سمار وأثناء نزولها من الطابق العلوي وهي تحمل صندوقاً خشبيا صغيراً بين يديها: نعم يا سيد حسّان, هناك دليل قاطع لما قاله هذان الشابان المحترمان.

بعد أن أصيب السيد حاتم بخيبة أمل كبيرة مما قالته السيدة سمار, وخصوصاً بعد أن رأى بين يديها صندوقا خشبياً قد تعرف عليه. قال حسّان بعد أن رفع نظره إلى الأعلى نحو سمار التي تنزل من الطابق العلوي عبر السلم: السيدة سمار! وما هو الدليل يا سيدتي؟

سمار: في هذا الصندوق ستجد كل الحقيقة التي تريدها, وما في داخل هذا الصندوق سينهي كل شيء, فهذا الصندوق كان في الغرفة الخاصة بالسيد حاتم, وقد منع كل شخص من الاقتراب من تلك الغرفة, حيث يحتوي هذا

الصندوق على كل الأوراق المزورة والأوراق الحقيقية التي تثبت أن كل الأملاك التي يمتلكها حاتم هي بالأصل ملك لـ(طه) وكذلك والدته.

حسّان: هل هذا الصندوق لك يا سيد حاتم؟

حاتم وقد أطرق برأسه, واكتفى بالصمت مجدداً.

عندما أخذ السيد حسّان الصندوق من سمار التي ناولته ذلك الصندوق, وذهب ليجلس على احدى طاولات صالة الحفل.....حاتم وبنظراته المتوجهة إلى السيدة سمار, كأن نظراته تقول: لمَ فعلتي هذا يا سمار؟

كانت سمار تنظر إليه بطرفي عينيها.....فقال السيد حسّان: سيد حاتم بصفتي المدير العام لشرطة هذه المدينة, فأنت متهم بقضية تزوير واختلاس أموال, وكذلك أنت متهم بمحاولة قتل, سيتم الكشف عنها بعد التحقيق. لذا أيها الحراس خذوا السيد حاتم إلى مخفر شرطة حي السلام كونه أقرب مخفر لنا. أما انتم أيها الشباب فستأتون معنا أيضا, لتُأخذ إفاداتكم جميعا.

ياسين: سيدي رجال حاتم الذين أمرهم بقتلنا في الفناء الخلفي.

حسّان: حسب هذه الأوراق فإن نسبة تسعين بالمائة من أملاك السيد عابد هي ملكٌ للسيد طه ووالدته. أما ما يملكه السيد حاتم هي نسبة عشرة بالمائة فقط. لذا فإن كل هذه الأملاك والتي نسبتها تسعون بالمائة ستعود للسيد طه ووالدته. وستساعدهما العدالة بإعادة كل أملاكهما.

تعانق كل من ياسين و طه عناق الفرح بالانتصار الساحق, ذلك الانتصار الذي جاء بعد تنفيذ مهمة كانت نسبة النجاح فيها قليلة للغاية. وتبعه بعد ذلك كل الأصدقاء مباركين لـ(طه) بمناسبة استرجاع حقوقه.

مراد: ياسين, إن الأسود قد طلب مني أن أخبرك بأنه يريد لقائك في مكان تعارفكما غداً صباحاً. لقد سألته عن أي مكان يقصد بالضبط, فقال لي إن ياسين سيعرف المكان المقصود حالما تخبره بذلك.

بحث ياسين عن الأسود, ولكن لم يجد أي أثراً له. فكان يجب على الأسود أن يبتعد عن القصر بعد أن سمع بأن بين الحاضرين المدير العام لشرطة المدينة وكذلك بعض من حراسه. حيث قال ياسين: شكراً لك يا أسود.....

(19)

فراقٌ هذا..... أَم لقاء

قرب النهر الذي يشق المدينة إلى نصفين وتحديدا قرب المقهى وعند غروب الشمس, أي في المكان المعتاد اجتمع الأصدقاء واضعين أيديهم على يد ياسين الذي كان يخطب فيهم: ها نحن ومن جديد قد أثبتنا لبعضنا البعض بأننا أصدقاء أوفياء لبعضنا البعض حتى الموت. والآن أنا ادعوكم لحفل زفاف صديقنا طه الذي سيقام عما قريب.

بعد أن جلس جميع الأصدقاء.....قال فارس متسائلا: والآن يا طه أخبرنا, هل ستسكن في ذلك القصر أنت ووالدتك؟

طه: لا يا عزيزي فارس, ذلك القصر قد سكن فيه حاتم وازداد شراسة وكبرياء وغروراً, ولم يعد يرى أمامه شيئاً غير المال, وحبه المفرط للثراء. لذا سأقوم بشراء منزل جديد لنا أنا ووالدتي لنسكن فيه.

زهير: أحقا ما تقول؟ هل ستترك ذلك القصر الفخم وتلك الحديقة التي.....يقاطعه طه: ولمَ لا يا زهير؟ لقد كانت ميار تحدثني باستمرار عن قصر والدها, كانت تقول إن القصر رغم اتساعه, إلا انه كان ضيقاً بأهله, ورغم ثراء أهله, إلا أنهم كانوا فقراء للسعادة الحقيقية, ورغم الإنارة التي كانت تنيره, فقد كان أظلم بسبب غياب روحية الحياة عنه.

شُبَّر: إن القرار لك يا عزيزي طه, وأنت حر في تصرفك.

نعيم: ياسين, لقد واعدك الأسود بالأمس عند انتهاء مهمتنا, بأن تلتقيا صباح اليوم, هل التقيتما؟

ياسين: نعم يا عزيزي, لقد التقينا.

نجاح: وما كان هدفه من ذلك اللقاء؟

ياسين: لقد كان خيراً, لقد اخبرني بأنه سيسلم نفسه للعدالة بعد أن يقوم بإصلاح كل أخطائه الماضية, هكذا ستخف محاكمته وقد يتم الإفراج عنه بأشهر قليلة. فضلا عن انه سيحوّل عصابته إلى منظمة خيرية لمساعدة الفقراء.

شُبير: أحقاً ما تقول؟! الأسود قال هذا الكلام لك؟!

ياسين: نعم, ولا تتفاجأ أبداً, فالأسود قد أيقن إن الدنيا فانية والأعمال باقية, وما سيزرعه اليوم سيحصده غداً.

آدم: لو لم يتدخل الأسود بالأمس..... يصمت آدم لأنه لا يريد أن يكمل ما سيحدث لو لم يتدخل الأسود, حينما قدم كبير حراس حاتم ليقتل ياسين.

ياسين: الحمد لله, ولكن الفضل بذلك يعود لمراد, فهو قد أصر إلا أن يشاركنا بمهمتنا, وتسلل إلى القصر واستطاع أن يمتطي حصانا من أحصنة القصر

وانطلق بسرعة كبيرة لدرجة أن رجال حاتم لم يستطيعوا أن يلحقوا به, إلى أن استقر عند الأسود وأعلمه بالأمر. لذلك فنجاح مهمتنا كانت باسم مراد.

مراد: هذا واجبي يا أصدقاء.

سامر: أنا فخور بك يا أخي.

شُبير: مراد أخبرنا كيف طاوعتك نفسك أن تذهب إلى الأسود, وضمنت أنه سيقدم لك المساعدة؟

مراد: أنا نفسي لا أعلم يا عزيزي شُبير, في الحقيقية قد توقف دماغي عن التفكير بسبب خوفي عليكم, ولكن ذات مرة قال لي ياسين بأن الأسود ذات يوم سيكون صديقاً لنا جميعاً, لذا عندما ذهبت إلى الأسود أعلمني أحد رجاله أنه ليس في مقره, ولكن ولحسن الحظ قد وصل لحظة أن أخبرت أحد رجاله أن ياسين في خطر وأنه يحتاج للمساعدة الماسة والضرورية. فهرع بسرعة وصار وجهه شاحباً للغاية, حتى أنه قد أقسم أنه لو أصاب ياسين أي مكروه فسيهدم القصر على رأس من فيه ولن يبقي لحاتم أي باقية لقد كان هذا نص كلامه. ولم يهدأ له أي بال حتى وصلنا.

نعيم: هذا غريب فعلا, فالأسود عُرف عنه بأنه شخص شرير وليس بالسهل التعامل معه, كيف صار عنده عقل الرحمن.

ياسين: لا تتفاجأ يا عزيزي نعيم, فالجميع قابل للتغير, نعم سمعت مقولة نصها أن من شب على شيء شاب عليه, وبرأيي القاصر إن هذه المقولة ليست قاعدة ثابتة, ولا تنطبق على كل خلق الله, فالإنسان إذا ما أردنا أن نغيره من السلبي إلى الايجابي لا تكفيه المواعظ أو أن نذكره بالجنة والنار, هذه المواعظ لا تكفي لتغييره, بل علينا دراسة دواخله قبل الشروع بعملية التغير.

سامر: ياسين, أذكر أنك قلت للأسود أن يترك أثراً كالنجوم التي في السماء عندما أخرجنا ثقيل من السجن وسلمناه للأسود نفسه, هل كان لكلامك هذا مع الأسود أثر بأن يتغير؟

ياسين: لقد ذكّرتُ الأسود فقط بأن الموت سيدركه مهما كانت عصابته كبيرة وقوية, فأراد إلا أن يتغير نحو الأفضل.

أثناء اجتماع الأصدقاء لم تستطع السيدة رحيل أن تكتم الحقيقة أكثر. لأنها كانت تعتبر أن هذه الحقيقة وأقصد حقيقة أن ياسين هو نفسه إليا بن السيد عبدالرحمن والسيدة كوثر, فرحيل كانت تعتبر أن هذه الحقيقة هي أمانة لا بد من الإيفاء بها, إلا أن هذا الأمر قد يحزنها, قد يحزنها أن تفارق ياسين الذي ربته منذُ أن كان ابن أشهر معدودة وكأنه ابن بطنها. ومن جهة أخرى كانت تأمل منه أن يقبض إرثها فليس لها من يرث أملاكها. لذا بعد أن أذرفت الدموع قالت: بني ياسين أهذه محطة فراقنا؟ فراق هذا أم لقاء يا عزيز قلب رحيل, أنى لي أن أتخيل أنك ستفارقني, والآن وبعد أن تفارقني سأستوحش

دنياي, فيعز عليَّ أن أخبرك بأني لست الأم الحقيقية لك. ولكن هذا من حقك ويجب أن تعرف ذلك ودينٌ عليَّ..... بعد أن أكملت رحيل نحيبها واستجمعت قواها, انطلقت إلى بيت السيد عبد الرحمن والدنيا قد اسودت بعينها. وحالما وصلت إلى بيت السيد عبدالرحمن ترددت كثيراً فحنانها لـ(ياسين) يمنعها عن إخباره وإخبار عائلته الحقيقية بالحقيقة من جهة, وحبها لـ(ياسين) كان يدفعها للعكس من جهة أخرى..... رحيل بعد أن دخلت لمتجر الخبز وبصوت يحمل الهم والحزن: كيف حالكِ يا عزيزتي كوثر.

كوثر بعد أن تركت تجهيز الخبز ووضعه داخل أكياس خاصة به وبعد أن استدارت لترى السيدة: السيدة رحيل! أهلا بك يا عزيزتي, كيف حالك؟

رحيل بابتسامة: هل كل عالتك في البيت؟

كوثر وأوجس القلق بداخلها, فحالة رحيل ليست على ما يرام وقد تأكدت أكثر عندما بان أثر الدموع التي جفت على خدي السيدة رحيل, حيث قالت كوثر: نعم يا سيدتي, ولكن هل أنتِ على ما يرام؟

رحيل: إذا كانت كل عائلتكِ في البيت الآن, فهلا أغلقتي المتجر وتحدثنا معاً في منزلكم؟

كوثر بتردُدّ: حسناً يا عزيزتي كما تريدين..... نادت على شُبير: بني شُبير أغلق المتجر ولا تتأخر للحضور معنا.

بعد أن دخلت كوثر إلى بيت السيد عبدالرحمن, استدعت كوثر كل إفراد عائلتها . ....عبدالرحمن: لقد أقلقتنا يا سيدتي فهل كل شيء على ما يرام؟

شُبَّر: هل أصاب ياسين مكروه ما يا سيدتي؟

رحيل بعد أن جلست مع عائلة السيد عبدالرحمن في صالة الاستقبال في منزل السيد عبدالرحمن: هل تعرضتما لحادث قبل عشرين سنة مع طفلكما إليا؟

كوثر وعندما تذكرت ذلك الحادث المؤلم ولظنها أنها قد فقدت إليا بسببه أغرورقت عيناها بالدموع: وما مناسبة هذا السؤال يا رحيل؟ فليس لي طاقة لتذكر ذلك اليوم المؤلم.

رحيل: عندما تعرضتما للحادث آنذاك كنتُ أنا هناك أيضاً.... تقاطعها كوثر: حقاً.... استطردت رحيل لتكمل كلامها فقالت: عندها هرعت إليكم لأساعدكم, ولكن عندما رأيت الدماء التي كانت تغطيكم بسبب ما أُصبتم به من جروح ظننت أنكم قد فارقتم الحياة, وبعد ذلك سمعت صوت طفل يبكي وقد خرج عن سلته التي كانت تحضنه.....اندهش كل من في البيت, ووقف عبدالرحمن لشدة اندهاشه مما سمعت إذناه ..... وقبل أن تكمل رحيل كلامها قاطعتها كوثر بالبكاء: انه ابني إليا, ولكن .....قاطعتها رحيل: عندها أخذت ذلك الطفل وأسرعت به كي أعالجه. وبعدها تكفلت بأن أكون أُماً له بعد أن ظننت أنكما فارقتما الحياة..... عبدالرحمن: ولكن كل من كان هناك بعد

الحادث أجزم وقال أن إليا قد سقط في النهر لكون سلته كانت على حافة النهر ومقلوبة إلى جهة النهر وفارق الحياة غرقاً! ..... رحيل: لا يا سيد عبدالرحمن أنا من أخذت إليا وعالجته وتكفلتُ به إلى أن كبر .....كوثر والبكاء يمنعها من الكلام, فقال عبدالرحمن: إذاً يا سيدتي أين هو إليا؟ أرجوكِ اخبرينا, أتوسل إليك.

رحيل وعيناها فاضت بالدموع: إن (ياسين) هو نفسه ابنكما (إليا), ياسين هو ابنكما يا عزيزتي كوثر.....أغمي على كوثر بعد أن شهقت. صاحب محاولة إيقاظها وإعادتها إلى وعيها, بكاء جميع من كان في البيت. رحيل وبعد أن قدمت لهم كل العلامات التي تدل على أن ياسين هو نفسه إليا أحد أفراد عائلتهم.....ومن ضمنها وحمة على شكل هلال على صدره.....فقالت كوثر مؤكدة كلام السيدة رحيل: نعم على شكل الهلال على صدره وعلى جانبه الأيمن, حيث أن قوس الهلال مفتوح نحو الأعلى.....أجابت رحيل بالإيجاب.

قال شُبَّر: إذاً فقد كان إحساسنا تجاه ياسين أعني أخي إليا كان في محله. فكلما رأيته كان قلبي يحنُّ إليه ولم أكن أعرف السبب. غير أننا أحببناه من دون أي سبب يذكر.

شُبير: ياسين هو نفسه أخي الذي ظننا أنه قد توفي! لا اصدق!

عبد الرحمن: حمداً لله على ما أنعم . .... ولكن يا سيدتي ما الذي منعك من أن تخبرينا قبل هذا اليوم؟

رحيل: لقد أخبرتك يا سيد عبدالرحمن أنني ظننت أنكم فارقتما الحياة عندما تعرضتما للحادث, بسبب الدماء التي كانت تغطيكما. ولكن هناك من تكتم على الحقيقة, فلست أنا الشاهدة الوحيدة على الحادث الذي أصابكم. هناك من كان على علمٍ بكل شيء, وتكتم على الأمر حتى هذا اليوم. ثم ليست لي بكم معرفة سابقة إلا معرفة سطحية, ولم أتعرف عليكما عندما كنتُ حاضرة بعد أن وقع الحادث لكم, فقد كانت الدماء تغطي معالم وجهيكما.

شُبَّر ورأسه مسند على صدر والدته: من الذي شهد الحادث معكِ يا سيدتي؟

رحيل: إنهما السيدتان ختام وصوفيا, فقد تكتمتا على كل ذلك لتصفية حساب قديم بينكم, حسب كلام صوفيا التي أنّبها ضميرها قبل يومين و أخبرتني بكل شيء من دون علم ختام التي منعتها من أن تخبركما أو تخبرني بهذا الأمر. لذا أخبرتني أنا بعد أن طلبت مني الأمان.

عبدالرحمن: يا إلهي , يا لخبثهن ومكرهن.

شُبير: إن أمر السيدتين لن يمر من دون حساب. ولكن ياسين أعني أخي إليا لمَ لم يأتِ معك؟

رحيل: بني شُبير, ياسين لا يعلم بالأمر حتى الآن, فقد أخبرتكم أنتم بكل شيء قبل أن أخبره, فقد لا يتقبل ذلك مني. أعني أخشى أنه سيقدم على معاتبتي لأني لم أخبره بأني لست أمه الحقيقية, وإن عائلته الحقيقية تعرضوا لحادث وفارقوا الحياة حسب ما كنت أظن.

عبدالرحمن: ولكن كيف يمكننا أن نخبره بهذا الأمر؟ فقد لا يستوعب الأمر بسهولة.

كوثر: ولكن ما العمل إذاً؟

رحيل: أعتقد أن الأمر سيكون أسهل من حيث معرفة ياسين بالحقيقة, ولكن قد يكون صعباً عليه أن يستوعب هذا الأمر, وأقصد بهذا الكلام ابنكم إليا.

شُبَّر: وكيف سيكون سهلاً عليه معرفة الحقيقة يا سيدتي؟

رحيل: لقد كلفت سيدة كبيرة بالسن تعرفني سابقاً, وتعلم بأني ليس بإمكاني الإنجاب, ستخبره بالأمر. فضلاً عن أنني كتبت له رسالة ووضحت فيها كل شيء أيضاً, كي تكتمل الصورة لديه, وأعتقد أنه في الطريق إلى هنا الآن.

كوثر: ولكن لماذا تأخر حتى الآن؟

شُبير: لقد كنا مجتمعين عند النهر عصر هذا اليوم, وقد أخبرنا بأن لديه عمل صغير سينجزه قبل ذهابه إلى بيته.....أو بيت السيدة رحيل.....أو بيتُ

.....في الحقيقة لا أعلم ما أقول .....تقاطعه رحيل: بل قل إلى البيت الذي نشأ وترعرع فيه.

كوثر بتوتر شديد وارتباك: لا أعلم كيف سأقابله.....عزيزي عبدالرحمن فلنذهب إليه فقد لا يأتي إلى هنا, وأخشى .....

يقاطعها عبد الرحمن: عزيزتي كوثر تمالكي نفسك, أرجوكِ اهدئي.

شُبَّر: ولكن يا أبي, أو ليس من الأفضل أن نذهب إليه نحن؟

رحيل: الأفضل أن تبقوا هنا إلى أن يأتي بنفسه إلى هنا. فيجب أن يعود لبيته الحقيقي ويلتقي بعائلته الحقيقية هنا بعد كل هذا الفراق. أليس كذلك يا سيدي؟

عبد الرحمن: بلى, هو كذلك.

شُبَّر بقرارة نفسه: لطالما تمنيت أن يكون لي أخ مثلك يا أخي إليا, وها قد تحققت أمنيتي, الشكر لله, فقد استجاب دعاء هذا الفتى المقعد. ياسين هو أخي إليا نفسه الذي لطالما اعتقدنا بموته, ياسين هو أخي أنا, لا أعلم كيف سأتمالك نفسي عندما أواجهك وجها لوجه يا ياسين.....أثناء ذلك أحس شُبَّر بأن قدميه تؤلماه بشدة, حيث شعر بأن هناك ألماً يسري من حوضه إلى أطراف أصابع اقدامه, ولكنه لم يأبه إلى ذلك أو أنه لم يعره أي اهتمام, لأنه قد عاد بذاكرته إلى أول لقاء جرى بينه وبين أخيه إليا عندما حملت الرياح تلك الورقة الممزقة من كتاب إليا إلى أن التصقت بوجه شُبَّر. وكيف أن إليا

تكلم ليواسي شُبَّر عندما كانت الكآبة ملازمة لوجهه. فقال: إذاً فقد كان ذلك هو فجر لقاءنا يا أخي.....

أثناء ذلك, عاد ياسين إلى بيت السيدة رحيل بعد أن أنجز عملاً كان سبب تأخره, ليجد امرأة كبيرة بالسن كانت تنتظره في شرفة البيت تدعى السيدة شمس, وبعد أن ألقى ياسين هو نفسه إليا التحية على السيدة شمس, قالت الأخيرة والتي كانت تسند رأسها على يدها وهي جالسة على أحد المقاعد هناك: هل أنت هو إليا؟

ياسين: أرجو المعذرة يا سيدتي أعتقد بأنكِ قد اخطأتي العنوان.

شمس: أليس هذا منزل السيدة رحيل؟

ياسين: بلى, هذا هو بيت السيدة رحيل.... وقبل أن يكمل ياسين كلامه قالت: أو لست أنت ياسين بن السيدة رحيل؟

ياسين مستغرباً بعد أن صعد على شرفة منزلهم: نعم يا سيدتي, ولكن ..... وقبل أن يكمل ياسين كلامه مجدداً قالت شمس: أرأيت يا بني, لم أخطئ العنوان ..... ثم أعقبت وقالت: اسمعني يا بني, في الحقيقة لا أعلم كيف أخبرك بالأمر, ولا أعلم من أين سأبدأ, ولكن أنا قد انتظرتك هنا حتى عودتك بطلب من السيدة رحيل, وطلبت مني أيضاً أن أخبرك بكلام ليس لك به أي علم سابقاً, ولا أعلم كيف سيكون سهلاً عليك استيعابه.

ياسين وقد أوجس في نفسه القلق شديد, فيبدو أن خلف كلام السيدة شمس يوجد أمر ليس بالهيّن عليه. هذا غير أن طريقة كلامها ونظرات عينيها تدلان على الثقة الكبيرة بالنفس ووضعية جلوسها كذلك. فقال ياسين بعد أن استقر جالساً أمامها على الأريكة في شرفة منزل السيدة رحيل: وما ذلك الكلام يا سيدتي. وهل استطيع معرفة من تكوني أولاً؟

شمس: أنا أُدعى شمس كنت في الماضي طبيبة أعمل في إحدى مستشفيات هذه المدينة أي قبل أن أتقاعد. استمع جيدا لما سأخبرك به يا بني, قبل خمسة وعشرين سنة قمت بإجراء بعض الفحوصات الطبية للسيدة رحيل. كانت تلك الفحوصات الطبية دقيقة جداً, ولا مجال فيها لوجود أي خطأ. حيث اثبتت تلك الفحوصات أن السيدة رحيل لا يمكنها الإنجاب بسبب مرض قد أصاب رحمها.....أراد ياسين أن يقاطعها, فأومأت إليه بأن يستمع لكلامها من دون أن يقاطعها, فأعقبت وقالت: خذ هذا التقرير الذي يثبت بأن السيدة رحيل لا يمكنها الإنجاب.....بعد أن أخذ ياسين التقرير وقد استوى واقفاً لدهشة ما سمعت أُذناه, وما رأت عيناه: فقال ولكن أنا أكون ابنها يا سيدتي وأظنكِ ..... فقاطعته السيدة شمس بنبرة حادة: أنت ترى أن هذا التقرير وقد ختم بختم رسمي من أحد مستشفيات المدينة. وأنا التي أشرفت عليه, أي أن رحيل ليست أمك الحقيقة يا بني, والآن أنا يجب أن أذهب.

ياسين: سيدتي, أرجوك توقفي ..... لم تهتم السيدة شمس لمناداة ياسين, بل تابعت طريقها وكأنها لم تسمع أي شيء ..... دخل ياسين المسكين إلى داخل

البيت وكانت هناك رسالة بانتظاره قد وضِعت على طاولة في داخل صالة الاستقبال, علمَ ياسين أن السيدة رحيل هي من وضعت تلك الرسالة, حيث قام ياسين بفتح تلك الرسالة وبدأ يقرأ:

" عزيزي ياسين أعتقد بأن السيدة شمس قد أخبرتك بكل شيء يتعلق بماضيي أنا, وأعتقد أن الأمور أصبحت مبهمة لديك, لذلك تركت هذه الرسالة لك كي تكتمل الصورة لديك بالكامل, لذا يا قرة عيني أنت و يا عزيز رحيل, قبل عشرين سنة من الآن تعرضت عائلة تتكون من زوجين مع طفلهما كانت تستقل عربة سفر, حيث تعرضوا لحادث أدى إلى إصابة زوج مع زوجته بإصابات بليغة جدا لدرجة أنني ظننتهم قد فارقوا الحياة إلا طفلاً كان بالقرب منهم مازال به نفس ساعده على البكاء, لقد كنتُ حاضرة هناك فأخذت الطفل لأعالجه قبل أن يفقد حياته فهو الآخر قد نجا بأعجوبة, لأنه هو الآخر قد أصيب بجروحٍ بليغة وكان ملقى على حافة نهر كان بالقرب من مكان الحادث وحمدا لله أنه لم يسقط في ذلك النهر. لذا بعد أن أخذت ذلك الطفل وبعد أن قمت بمعالجته و بسبب ظني أن والديه قد فارقا الحياة, قمت أنا بتبنيه وتربيته واتخذته ابنا لي. وقد علمت منذُ يومين وسأخبرك لاحقا كيف علمت أن والدي الطفل ما زالا على قيد الحياة ولله الحمد. عزيزي ياسين إن والدي ذلك الطفل هما السيد عبدالرحمن والسيدة كوثر صاحبا متجر الخبز وأنت قد تعرفت عليهم سابقاً, أما الطفل الذي قمتُ بمعالجته وتبنيه وتربيته هو أنت يا بني حيث أن اسمك الحقيقي هو إليا, وأرجو منك

أن تأتي إلى بيت السيد عبدالرحمن لأن عائلتك الحقيقية تنتظرك هناك, لذا أرجوك لا تتأخر عليهم فهم متشوقون لرؤيتك من جديد, وكي لا أنسى فإن لديك أخوين أنت تعرفهم هما شُبَّر وشبير.

مع خالص الحب والحنان لك ....والدتك الثانية رحيل "

(16)

إذاً فقد كان فجر اللقاء حقاً

التقرير الطبي الذي يثبت أن السيدة رحيل غير قادرة على الإنجاب, وكلام السيدة شمس ورسالة السيدة رحيل, إضافة إلى أن ياسين قد تذكر كلام أخيه شُبَّر الذي أخبره بأن له أخاً قد توفي قبل عشرين سنة بقصة مشابهة تماما لما كتبته له السيدة رحيل في تلك الرسالة, أيقن تماما أن هذه هي الحقيقة ولا شك فيها, لذا جلس على الأرض في صالة الاستقبال وراحت دموعه تسقط واحدة تلو الأخرى على الأرض بعد أن تسيل على خديه, ولا أعلم أهي دموع فرح أم حزن؟ أم ماذا؟ حيث قال: اسمعوا يا جدران المنزل وأبوابه أنا لست ابن رحيل كما كنت أظن, بعد كل هذه السنين, تبين لي أني لست ابن رحيل !..... ضحك ضحكة خفيفة لفرط اندهاشه فقال: كل هذه السنين التي مضت تأتي أمي أو السيدة التي ربتني لتخبرني أني لست ابنها وأنها ليست أمي الحقيقية .....يضع ياسين عشر أصابعه على رأسه ويقول: آهٍ , آهٍ , آهٍ كيف لي أن استوعب هذا كيف؟!!! لذا خرج من المنزل مسرعاً نحو بيت السيد عبدالرحمن إلى عائلته الحقيقية, تلك العائلة التي لطالما أذرفت الدموع حزنا على فقده. حيث كان بانتظاره أمام منزل السيد عبدالرحمن السيدة كوثر, وهي ممسكة بمرفق يدها وتنظر باتجاه الطريق الذي سيأتي منه ابنها إليا. وبعدها ارتجف قلبها كما لو انه لم يرتجف من قبل بمثل هذه القوة عندما رأت شخصاً من بعيد يركض باتجاهها تحت ضوء القمر, ثم أمعنت النظر

وشيئا فشيئا إلى أن بدأ ذلك الشخص بالاقتراب أكثر وأكثر. كاد أن يغمى عليها لو لم تتمالك نفسها لأنها لا تريد أن تفوت لحظة عناق ابنها ياسين (ماذا أقول أنا بل إليا) الذي فتح ذراعيه وقالت بعد أن صرخت كوثر بصوت يعتليه الحنان والاشتياق الشديد: إليا, بُني وقرة عين أمك كوثر, أهذا أنت حقاً ..... حيث صاح إليا بصوت منخفض فلا يريد أي احد أن يسمع بكاءه: أمي ..... تعانقا حتى أصبحا كالجسد الواحد, بكت كوثر, وبشكل هستيري بدأت تقبل ولدها إليا في كل مكان في وجهه, أمسكت كوثر يد ابنها إليا اليمنى بيدها اليمنى واليد الأخرى وضعتها حول إليا. دخل إليا إلى بيت السيد عبدالرحمن حيث كان هناك الجميع بانتظاره عانقه والده الذي غطت دموعه خديه ثم قال: إذاً فالذي أخرجني من السجن هو نفسه ابني الذي لم أتعرف عليه! . .... فقبل إليا يد والده, واكتفى بكلمة أبي فقط لأنه علم إن تكلم أكثر فسيبكي وتمنعه دموعه من أن يعيش تلك اللحظة مع عائلته بعد فراق طويل, تلك اللحظة..... لحظة اللقاء. عانق شُبير فقال مازحا إذاً فأنت أخي الصغير أليس كذلك ..... فاكتفى شُبير الذي غمرت دموعه عينيه, بعد أن شهق شهقة ليكتم بكائه, بقول كلمة أخي إليا..... استقر إليا أمام الفتى المقعد شُبَّر والدموع قد ملأت خدي كل منهما, ولكن ذلك الفتى المقعد قد أدهش الجميع, حيث بعد محاولة للوقوف على قدميه لم تدم طويلاً حتى استقر واقفا وقبل أن يختل توازنه ويسقط احتضنه أخاه إليا. لقد تعانق الأخوين حتى صارا كجسد واحد, بل حتى أن اضلاعهما كادت أن تختلف فيما بينهما. لا تعرف عائلة السيد عبدالرحمن, أتفرح لعودة إليا إليهم بعد فراق دام عشرين

سنة؟!!! أم لوقوف شُبَّر الذي عجز عنه منذ أن كان طفلاً؟!!!.....

"نحن لا نؤمن بالصدفة, بل نؤمن بأن كل شيء كان مقدراً"

تم بحمد الله

هذه الرواية مقتبسة من مسلسل عهد الأصدقاء . حيث تتكلم عن مجموعة من الأصدقاء يواجهون بعض العراقيل التي تعكر صفو حياتهم، حيث يسعون معاً كيدٍ واحدة من أجل مساعدة بعضهم البعض . ولكن في نهاية الرواية قد تحصل لبعض منهم منعطف كبير في حياتهم.....

2020